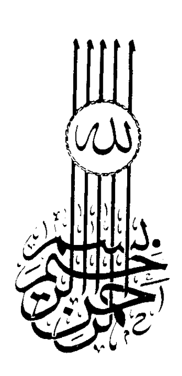
رسائل الى الشباب المسلم
(٥)

الوحدة الإسلامية

ضرورتها والوسائل العملية لتحقيقها

أنور الجندي



الوحدة الإسلامية

ضرورتها والوسائل العملية لتحقيقها

الطبعة الأولى

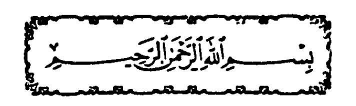
١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م

دار الصحوة للنشر

دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

الإدارة : ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤

الفرع : حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١



﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾

(آل عمران)

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

(آل عمران)

﴿ الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾

(الشورى)

﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾

(الحجرات)

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

(الحجرات)

(١)
مدخل

كان أول أهداف النفوذ الأجنبى (ممثلا فى الاستعمار والكنيسة ، وكل القوى المعادية للإسلام) أن تحول بين الإسلام دين التوسع السلمى الذى استمر على مدى القرون لم يتوقف ، وأن توقف نمو الإسلام نفسه وقدرته الروحية والعملية التى تخلق روح الأخوة الإسلامية : هذا الهدف الأكبر : هو القضاء على الوحدة الإسلامية فى شطريها : الجغرافى والفكرى عن طريق طرح بدائل سياسية وفكرية ترمى إلى خلق روح الإقليمية والقومية بديلا لروح الوحدة الإسلامية الجامعة وبذلك يتوقف نمو الإسلام جغرافيا وفكريا ويتوقف نمو اللغة العربية الحاملة لفكر الإسلام عن طريق القرآن الكريم .

فى القضاء على الوحدة الإسلامية كان من أكبر أهداف النفوذ الأجنبى والاستعمار والدول ذات المطامع وقد تلاقت هذه الغاية بين الاستعمار والشيوعية والصهيونية جميعا من أجل تركيز أيدلوجى لهم وتذويب مفاهيم الإسلام .

ولقد كان القرآن الكريم قد ركز تركيزا شديدا على وحدة المسلمين كما ركزت السنة النبوية ودعت إلى أن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وإن المسلم للمسلم كالبنيان بل لقد دعت إلى ضرورة الاهتمام بأحوال المسلمين أيا كانوا فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

ولقد عاش المسلمون يتنادون إبّان الأزمات لا تفصلهم الحدود الجغرافية التى وضعها المستعمر ولا تحول بين تلاقى عواطفهم : تلك النظم التى ترسم لكل قطر تاريخا وهوية ، وتحاول أن تحيى ماضيه السابق للإسلام عن طريق حفريات

الآثار بهدف قطع روابط الإسلام وإحلال روابط أخرى مرتبطة بالفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية .

ولقد ركز النفوذ الأجنبى تركيزا كبيرا على قضية الإقليمات ، وأثار الزوابع والأعاصير بين العرب والترك اللذين كانا يستظلان بظل الخلافة الإسلامية حتى تحطمت هذه الوحدة على النحو الذى سجله التاريخ الحديث إذ كان إسقاط الخلافة باعتبارها أداة الوحدة من الأهداف الأساسية التى سعى إليها وعمل لها أكثر من قرنين من الزمان .

كان الإسلام أساسا هو الهدف ، الذى جرت المخططات الاستعمارية كلها والتغريبية من أجل تقليصه والحد من نفوذه وتأخير نهضته، وكان الاستعمار العسكرى والسياسى والاقتصادى قد زرع الكيان الإسرائيلى وهو من العوامل الأساسية للقضاء على الوحدة الإسلامية وهدم القاعدة التى كانت دولة الخلافة العثمانية أساسها ، على النحو الذى عرف عندما نادى السلطان عبد الحميد (يا مسلمى العالم اتحدوا) ، وكان ذلك علامة على اتساع الوحدة من حدود وحدة بين العرب والترك إلى وحدة جامعة تمتد إلى الهند وإيران وأرخبيل الملايو .



(٢)
ثبات الهدف وتغير الوسائل

إن فكرة الوحدة الإسلامية قد تنقلت فى أبراج عديدة ، فكانت فى كل مرحلة تتشكل حسب حاجة الأمة الإسلامية إليها وفى ضوء الممكنات والأوضاع ، دون أن تفقد جوهرها الحقيقى ، وإن بدا أن صورتها مختلفة اتساعا وضيقا ، فقد كانت إحدى عقائد الإسلام الحقيقية المتمثلة فى قانون الأخوة الإسلامية التى لم تمت فى صدر المسلمين يوما منذ نزلت آيات القرآن إلى اليوم ، فقد ظلت هذه العاطفة التى تقوم على التنادى والحب والموالاة والالتقاء قائمة جياشة إذ كانت لا تزال تحرسها كلمات القرآن وفريضة الحج إلى بيت الله الحرام ، وتقلب المسلمين فى البلاد فى شئون التجارة والتعامل ، هذه الظاهرة التى كان من شأنها أن جذب الإسلام إليه الكثيرين من الوثنيين لسماحة المسلمين ولما كان لأدائهم الصلاة من أثر يهز النفوس ، ويشعرها بالتواضع والإخبات إلى الله تبارك وتعالى .

وقد كان لعاطفة الوحدة الإسلامية طابعها إبّان قيام الدولة العثمانية والخلافة فى محاولة للتوسع تشمل مسلمى العالم تحت اسم جامعة إسلامية . فلما سقطت الخلافة وانجلت عقدة الوحدة السياسية بسقوط الدولة العثمانية عادت عاطفة الوحدة الإسلامية تتشكل فى صورة جديدة تحت اسم الرابطة الإسلامية ، أو الرابطة الشرقية ، ثم كانت الدعوة إلى العروبة إسلامية الطابع والهدف كحلقة تتناهى إلى الوحدة بعد تجاوز العقبات وليس كدعوة مستقلة ، أو هدف نهائى . ولكنه كان تجمع الممكن الذى يؤمن بأن الأساس هو الإسلام وأن الرابطة هى رابطة القيد .

وهكذا تحدد مفهوم الوحدة الإسلامية فى كل مرحلة من مراحل اليقظة الإسلامية على النحو الذى يتفق وحاجة الأمة الإسلامية إليه فى تلك المرحلة ،

وعندما رأى السلطان عبد الحميد أن النفوذ الأجنبى يزحف بمطامعه للسيطرة على البلاد الإسلامية دعا إلى وحدة إسلامية جامعة أوسع نطاقا من الخلافة ووحدة العرب والترك ، فأعلن صيحته : يا مسلمى العالم اتحدوا .

وفى الوقت الذى كان يعمل لذلك من خلال موقفه كخليفة للمسلمين تواجهه تحديات روسيا من ناحية وبريطانيا من ناحية أخرى والصهيونية من ناحية ثالثة ، كان جمال الدين الأفغانى يدعو إلى العمل الشعبى لإعداد قطر من الأقطار الإسلامية ؛ ليكون منطلقا للعمل وكان يدعو علماء المسلمين وأمراءهم إلى استشعار الخطر والتقارب وعقد الخناصر والتضحية بالفخامة والأبهة فى سبيل مواجهة الزحف الذى كان يعرف أن أول الضربات التى توجه إلى المسلمين تركز على مفهوم الوحدة الفكرية الجامعة التى هى أساس الوحدة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا كان طرحه لمفهوم الإقليميات والقوميات



(٣)
القضاء على النفوذ الأجنبي يمهد للوحدة

إن من يدرس تاريخ الإسلام دراسة واعية يجد أن الرابطة الإسلامية هي جزء من نسيج الإسلام نفسه لاينفك عنه وقد يصيبها الوهن حينا إذا مر المسلمون بمرحلة ضعف ، أو تخلف ، أو هاجمتهم القوى الغازية المتربصة بهم دائما ، ومن هنا فقد كانت دعوة القرآن الكريم إلى الوحدة الجامعة وإلى أن تكون عقيدة الإسلام وشريعته هي منطلق التحرك ، وطابع التعامل الإسلامى بين المسلمين ومع غيرهم ، على نحو يشهد دائما بأن لهم ذاتيتهم الخاصة وشخصيتهم المتميزة التى لا يمكن أن تنصهر فى غيرها ، أو تختلط ، أو تتنازل عن قيمها الأساسية ، فهذه الذاتية الخاصة هى وحدها القادرة على المحافظة على الوحدة أولا ، وهى الحامية من الانصهار فى الوحدات الخارجية التى قد تتنامى بينما تضعف الوحدة الإسلامية .

وقد جاء الإسلام دعوة عالمية وجاء محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين بشيرا ونذيرا ، ومن هنا فإن الإسلام لا يقبل لأهله أن ينصهروا فى الأممية ، أو يندمجوا فى أى وحدة أخرى كالوحدة الأوربية ، أو وحدة الحضارة ، أو وحدة العالم الحر ، أو العالم الشيوعى .

وقد شاء الله تبارك وتعالى أن تكون معالم الوحدة الإسلامية من القوة والحيوية والسلامة بحيث تحمى الكيان الإسلامى من أن ينصهر ، أو ينهار ، أو يتخلف ، وقد شهد للإسلام بنظامه المتميز وعالمه الإسلامى العالمى الفريد ، القادر على العطاء ، والغنى فى الوقت نفسه عن نظم البشر ومناهجهم ، كثير من علماء الغرب المنصفين ، حتى المعادين له - ربما من باب توجيه قومهم إلى العمل على هدم قوائم هذه الوحدة .

ومن هنا كانت الضربة المسددة إلى الوحدة الإسلامية تتمثل فى إحياء العصبيات والجنسيات والفرق ، وهو ما يسمى فى العصر الحديث بالإقليميات والقوميات .

ولقد مر المسلمون فى العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر بتجربة هذه البدعة الخطيرة ، واستسلموا لها فى ظل مقاومتهم للاستعمار ظنا بأن الوطنية ، أو القومية ستحميهم من خطر الاحتواء ولكن التجربة أكدت فساد هذه المذاهب تماما بالنسبة للمسلمين ، وإن صلحت بالنسبة لغيرهم ممن يملكون أديانا وعقائد تختلف عن مفهوم الإسلام الجامع .

ولقد أعطيت هذه التجربة فرصة وافرة وحشدت لها من القوى والعقول والوسائل ما لم يحشد لأى بدعة أخرى ومع ذلك فقد سقطت سقوطا شنيعاً .

ونحن الآن فى أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر نستطيع أن نقول : إن المسلمين يتجهون الآن نحو الوحدة بخطى حثيثة بعد تلك المراحل التى قطعوها بالرغم من العوائق التى يضعها النفوذ الأجنبى حتى لا تتحقق .

وإن المسلمين سوف لا يجدون أمامهم من سبيل فى طريق الصحوة الإسلامية إلا بتحقيق هذه الغاية .

ولا ريب أن المراحل التى قطعتها الأمة الإسلامية فى سبيل التحرر من النفوذ الأجنبى هى جزء من خطة الوحدة الإسلامية وهى من الأسس الضرورية لها فليس معنى تأخر الوحدة الإسلامية إلى اليوم دليلا على انصراف المسلمين عنها وإنما هو من خطة شاملة رسمت منذ وقت بعيد ، عام ١٩٠٧ على ما يبدو عندما تبين للغرب أن حضارته على وشك الانهيار وأنها تدخل فى مراحل السقوط والانحدار التى مرت بالحضارة الرومانية وعندما أعلن علماء الغرب بأن القوة الإسلامية التى تعيش فى قلب إفريقيا وآسيا وهى التى أطلق عليها نابليون (قارة الإسلام) هى الوريث الحقيقى لهذه الحضارة الغازية ، ومنذ ذلك الوقت وخوفا من تنامى الإسلام وضعت أوربا والغرب تلك الخطط والتى ترمى إلى (تأخير) النهضة . وكان إيجاد جسم عازل ليس من أهل المنطقة بين أفريقيا وآسيا هو المخطط الذى اتفق عليه هذا المؤتمر ، والذى مهد لقيام الكيان الصهيونى .

ومن هنا نأتى إلى التصور لنفس الموقف المعاد بصورة مختلفة عندما هاجمت الحملات الصليبية هذه المنطقة قبل سبعمائة عام وكيف واجه المسلمون هذا

الموقف ، وردتهم الحملات إلى التفكير في الوحدة والتنازل عن كل مطالب الترف والغرور والعزلة في سبيل مواجهة الخطر الأكبر .

• من هنا فنحن على طريق المواجهة الحقيقية لهذا الخطر إيمانا بأن الإسلام هو الذى يصحح طريق المسلمين إذا وصلوا إلى مرحلة الضعف ، أو اعتدى على أرضهم معتد وهى دعوة تنبثق من الداخل ، وتنطلق من أجل حماية الثغور والمرابطة فيها ومن هنا فإن الدعوة إلى حشد القوى وإعداد الفداء وخلق روح المقاومة والحيلولة دون طوابع الترف والتراخى والفهم العميق للأخطار التى تحيط بالأمة الإسلامية وتحاصرها ذلك أنه لابد أن يتوحد العالم الإسلامى مرة أخرى ، كما توحد عندما هاجم الصليبيون أطرافه ، فاستجابت أطرافه إلى توحيد الجبهة الإسلامية التى تنادت لمقاومة الحملات الصليبية وكانت هذه القوة المستمدة مصدراً لتخلص العالم الإسلامى من الصليبيين والتتار والباطنية جميعا .



(٤)
المضمون الإسلامى للوحدة الإسلامية

هذه الأمة الإسلامية التى كانت خير أمة أخرجت للناس أقامها الله تبارك وتعالى فى هذا الموقع الفريد لحمل رسالة التوحيد الخالص وتبثها إلى العالمين وقد جاء مفهوم الأخوة جزءاً من عقيدة هذه الأمة لا تنفك عنه وهو قاعدة النظام السياسى الإسلامى كله .

فالإسلام جنسية كما هو نظام مجتمع وقد صوره السيد جمال الدين الأفغانى أصدق تصور حين قال قبل مائة عام (العروة الوثقى ١٣٠١) هـ .

« وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم المقدسة الإلهية التى لا تميز بين جنس وجنس وإجماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرص على الشريعة والدفاع عنها وكل فخار يكسبه الإنسان وكل امتياز تعيره الأحساب لم يجعل له الشارع أثرا فى وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة فهى ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم . والمتعصب لها ملوم . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) والأحاديث النبوية والآيات المنزلة متضافرة على هذا ولكن يمتاز بالكرامة والاجتهاد من تفوق الكافة فى التقوى – اتباع الشريعة : ﴿إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾ ومن ثم قام بأمر المسلمين فى كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف فى جنسه ولا امتياز له فى قبيلة ولا ورث الملك عن آبائه ولا طلبه لشىء من حسبه ونسبه وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه ، هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتبرون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى والفارسى يقبل سيادة العربى والهندى يذعن لرئاسة الأفغانى ولا اشمئزاز عند أحدهم ولا انقباض » .

إن وطننا هو كل شبر أرض فيه مسلم يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله وما أروع ما قال الشاعر المسلم :

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطنا   الشام فيه ووادى النيل صنوان
وكلما ذكر اسم الله فى بلد   عددت أرجاءه من لب أوطانى

***

وهكذا نجد على مدى أكثر من مائة عام هى بمثابة القرن الرابع عشر الهجرى ، أن مفكرى الإسلام لا يكفون عن تقديم التصور الإسلامى للوحدة التى كانت وما تزال أصل المسلمين باعتبارها جزءاً لا ينفك من عقيدتهم وتصورهم الإسلامى الجامع ومن هنا ومن خلال كل دعوات اليقظة الإسلامية المتتابعة يتشكل مفهوم أصيل قوامه : أن وحدة الأمة الإسلامية واجب دينى على كل مسلم أن يجاهد ليحققها وحفظها بالإخاء والإحسان والتعاون وأن يتم ذلك عن طريق تطبيق الشريعة الإسلامية : التى هى المدخل الحقيقى لإعادة الأمة إلى حظيرة الإسلام وتحقيق الوحدة الجامعة .



هذا هو المضمون للقاعدة الأساسية للوحدة الإسلامية . ويصور الأستاذ دروزة فى كتابه الدستور القرآنى (ضرورة الوحدة الإسلامية) فيقول : لقد دعا الإسلام إلى التضامن فى سبيل وحدة المجتمع الإسلامى وأمنه وقد استهدف القرآن قيام مجتمع إسلامى قوى عزيز متضامن يشد بعضه بعضا متحد فى الغايات الكريمة الصالحة التى تتحقق بها سعادته وقوته وكرامته . فقد دعا الإسلام إلى :

١ – تولى بعضهم بعضا وخطر تولى الأعداء .

٢ – دعا الإسلام إلى التحذير من الفرقة والاختلاف والنزاع .

٣ – دعوة الإسلام إلى وجوب الإصلاح فيما بينهم لئلا يتصدع بناؤهم .

٤ – حذر الإسلام مما يحاوله الأعداء من إثارة الفتن بين المسلمين والإصغاء لما يلقونه من وساوس وينصبونه من شباك المكائد .

٥ – التضامن فى اتقاء الفتن الهوجاء التى يمكن أن تعصف ببنيانهم الاجتماعى ، أو تضعفه .

٦ – الوقوف موقف الحزم والشدة والحذر من الفئات المفسدة الخبيثة داخل المجتمع والقوى التى تحميها .

٧ – التحذير من موالاة الأعداء واتخاذ المسلمين بطانة منهم وموالاتهم ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ آل عمران . ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا﴾ (آل عمران) .

ويحدد الأستاذ حسن البنا موقف الإسلام من الوحدة الإسلامية فيقول .

إن الإسلام كما هو عقيدة وعبادة ، هو وطن وجنسية وإنه قد قضى على الفوارق النسبية بين الناس فالله تبارك وتعالى يقول : (إنما المؤمنون إخوة) والنبى صلى الله عليه وسلم يقول « المسلم أخو المسلم » و« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » والإسلام والحالة هذه لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية ، ويعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة ، ويعتبر الوطن الإسلامى وطنا واحداً مهما تباعدت أقطاره وتناءت حدوده .

(٥)
الإسلام جنسية

إن مفاهيم الإسلام الجامعة تؤكد على هذا المعنى ، الذى ردده جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وحسن البنا ثم صورة الإمام المودودى تحت عنوان آخر هو القومية الإسلامية ، ولقد حفظ الإسلام للشعوب تميزها الخاص الذى يتعلق بموقعها الجغرافى وظروفها التاريخية الخاصة وجعل ذلك كله فى إطار الوحدة الإسلامية الجامعة لا يختلف معها ولا يتعارض (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) ولما كانت الأمة الإسلامية بمثابة وطن واحد للمسلمين جميعا ، فقد كان على المسلمين أن يعملوا على زيادة التعارف بينهم والقضاء على الخلاف وتجاوز الفوارق الحقيقية الناتجة عن اختلاف المناخ ، أو العادات فلابد أن يقوم التعارف بين المسلمين العرب منهم وأهل الهند والباكستان وتركيا وإيران وأرخبيل الملايو ، وتوسيع رابطة التعامل والتلاقى حتى يزدادوا تآلفا ويزداد بهم الإسلام قوة وعلاء ولا سيما إذا كان التعارف عن علم صادق لا تحكمه محبة الوطن على كتمان نواحى الضعف فى إحداثه .

ولقد كان التعارف عاملا من عوامل انتشار الإسلام سلما حتى تضاعف حجم العالم الإسلامى واتسع نطاقه عن طريق قوافل التجارة والانتقال وقضاء فريضة الحج والسعى نحو معاهد العلم فى العواصم المختلفة ، وقد رحل ابن بطوطة من المغرب إلى جزر الملايو فزار بضعة وعشرين وطنا إسلاميا دون أن يحمل جوازا سفر . هذا فضلا عن تكامل الأمة الإسلامية اقتصاديا وجغرافيا .

وقد حرص النفوذ الأجنبى على العمل على إخفاء اسم العالم الإسلامى وأرض الإسلام ووضع مصطلحات ماكرة مثل الشرق الأوسط الذى أطلقه المؤرخ الأمريكى ألفريد ناير ليدل به على المنطقة الواقعة بين الهند وشبه جزيرة العرب من وجهة نظر الغرب .

بينما أن العالم الإسلامى هو القارة الإسلامية ، حيث قامت فيه الامبراطورية الإسلامية : الفارسية والإسلامية الهندية والتركية حيث حلت اللغة العربية بدلا

من اللغات القبطية والسريانية والإغريقية وكتبت الفارسية والتركية والأوردية والملايو بالحروف العربية ونقلت الكنائس تراتيلها إلى اللغة العربية .

يقول (هـ . ج . ولز) فى حديث مع أمين الريحانى :

إن القرآن هو عروة الإسلام الوثقى ، أوعلى الأقل وسيلة يجب استخدامها فى تحقيق الوحدة الإسلامية وإن وحدة أى أمة من الأمم مفيدة لها ولغيرها فالوحدة تعيد إليها كرامتها وتوجب عليها القيام بعهودها .

أما الإسلام اليوم فهو مشتت الشمل مبدد القوى ولو لم يكن لدى المسلمين واسطة إلى الاتحاد لوجب عليهم اختراعها ولكن كتابهم خير واسطة ، وإذا كانت إنجلترا فى خطر من الاحتلال الأجنبى العربى فرضا . وكان أبناؤها مشتتى الشمل مبددين فى أربع زوايا الأرض دون رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، فلا أتردد فى دعوتهم إلى الإنجيل بل أتخذ من الكتاب المقدس شارة جنسية وعلما وطنيا وعروة شاملة فى الوحدة القومية (الهلال - ١٩٢٣) .

ومع وضوح هذا المعنى فى ذهن الأوربيين فقد قامت قيامة الاستعمار على الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وأججوا المخاوف حول الجامعة الإسلامية .

***

إن وحدة المفهوم الإسلامى الجامع (عقيدة وشريعة وأخلاقا) التى جاء بها النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ونزل بها القرآن الكريم والسنة المطهرة قد أنشأت رابطة عقيدية عقلية ووجدانية لاتستطيع أى قوى فى الأرض أن تزيلها، ولكن يمكن أن تضعفها فترة من الزمن ، وهى ترتبط بالمصلحة الكبرى والهدف الأسمى ، ولا تتبدل مع تبدل الزمن فالمسلمون يشعرون بأنهم أمة واحدة من دون الناس جميعا على مدار التاريخ وإنهم يملكون الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ويتجهون إلى قبلة واحدة : (وإن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاعبدون) .

ومن هنا كان تصورهم لمختلف القضايا والمسائل واحداً ، أو متقاربا لا اختلاف فيه وخاصة فى المسائل الأساسية الكبرى ، أما الخلاف فى المسائل الفرعية والتى تتعلق باختلاف الأقاليم ، أو العادات الاجتماعية ، أو غيرها فإنها خلافات

فرعية هينة لا قيمة لأثرها إزاء مساهمة الالتقاء والتوحيد الواسعة فى المسائل الكبرى .

وهم يعرفون مسئوليتم الفردية والتزامهم الأخلاق وأمانتهم لعمارة الأرض على منهج الله ، ومن هنا كانت محاولة النفوذ الأجنبى لاختراق هذه الوحدة الفكرية بالتغريب والغزو الفكرى كمقدمة للقضاء على وحدتهم الجغرافية والسياسية والاجتماعية .

ولقد كانت مفاهيم الإسلام نفسه قادرة على أن تجد قبولا فى القلوب والعقول فى كل مكان ومن هنا كانت « معجزة » التوسع الإسلامى الكبير الذى تمت خلال أقل من ثمانين عاما من حدودالصين إلى نهر اللوارد وهذا هو الخطر الكبير الذى حاول الغرب مواجهته .





الباب الأول

خطوات المؤامرة لتمزيق وحدة الأمة الإسلامية

١ – إسقاط الدولة العثمانية .

٢ – عزل السلطان عبد الحميد .

٣ – إسقاط الخلافة الإسلامية .

٤ – الدعوة إلى الطورانية .

٥ – إقامة نظام الاتحاديين كمقدمة لنظام أتاتورك العلماني .

(١)

إن المراجعة الواسعة لوقائع التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث تكشف عن أن الوحدة الإسلامية كانت هى الهدف الأكبر الذى ركز عليه النفوذ الأجنبى فى سبيل تثبيت نفوذه إلى أطول مدى فى عالم الإسلام ، باعتبارها (العروة الوثقى) التى إذا انفكت فقد انتثر جماع هذه الأمة الممتدة من أرخبيل الملايو إلى جبل طارق ، هذه المنطقة الخطيرة التى هى بحق قلب العالم من حيث حركة التجارة العالمية والمواصلات البرية والبحرية والجوية ، وهى مصدر الثروة الظاهرة والمختفية تحت الأرض من مواد خام وبترول وكوبلت ومنجنيز وفوسفات مما هو مادة الصناعة العالمية الذى يحرص قادة الاقتصاد العالمى أن تكون فى أيديهم .

ولقد كان الغرب قد أعد نفسه للمعركة الحاسمة بعد هزيمته فى الحروب الصليبية وبعد أن امتلك المنهج العلمى التجريبى الذى صنعه المسلمون ومضى به خطوات فى سبيل التصفية ، فكانت عودته للسيطرة على الأمة الإسلامية فى مرحلة الضعف والتخلف ترمى إلى القضاء على وجودها كليا ، ولكن هذه المفاهيم كانت واضحة فى تقدير كثير من الذين درسوا السياسة الاستعمارية وفى مقدمتهم السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغانى ومحمد على السنوسى وعبد القادر الجزائرى وأحمد بن عرفات والأمير شامل فقد كانوا يتنادون إلى التجمع والتكامل من أجل مواجهة الخطر ، ليس فقط فى نطاق الدولة العثمانية التى تحمل لواء الخلافة الإسلامية ولكن خارج هذا النطاق وفى مختلف أقطار المعمورة وهو الهدف الذى كان يعد له السلطان عبد الحميد بصيحة (يا مسلمى العالم اتحدوا) وقد أرسل البعوث إلى جميع تلك الأقطار .

وكان الغرب قد أعد عدّته لتمزيق الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة وتمزيق هذه الأمة إلى شظايا وأقطار وفرق متنافرة وغرس ذلك الجسم الغريب فى قلب عالم الإسلام ليمزق وحدة الأمة الإسلامية ويغرس اسفينا يمنع التقاء جزئيها الأسيوى والأفريقى وذلك على النحو الذى رسمته توصيات مؤتمر علماء الغرب الذى عقده نبرمان رئيس وزراء

بريطانيا عام ١٩٠٧ كان الهدف هو إخراج المسلمين من قيمهم وصهرهم فى قيم أخرى حتى يفقدوا ذاتيتهم وفى سبيل الابقاء على تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وضعت المخططات التى ترمى إلى القضاء على العوامل الأساسية للوحدة وأبرزها التمسك بالفريضة الماضية إلى يوم القيامة (فريضة الجهاد وسد الثغور والمرابطة بها والإعداد) على النحو الذى يسمى فى العصر الحديث (القدرة على الردع) . كانت الدعوة إلى التراخى والترف وتغلب طابع المجتمع الاستهلاكى وتفريغ القيم الإسلامية من مفاهيمها الأصيلة ، وفرض قانون نابليون على نظم القضاء والحكم والتعليم والاقتصاد فى محاولة خطيرة لاحتواء تلك الأمة الإسلامية وصهرها فى بوتقة النفوذ الغربى .

***

كذلك كان سعى النفوذ الأجنبى إلى فكرة قواعد الوحدة الإسلامية بهزيمة الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة الإسلامية وغرس الكيان الإسرائيلى هو أخطر ما رسمه هذا المخطط الذى أراد النفوذ الأجنبى إقامته واستدامته حتى لا يستطيع المسلمون مهما بلغوا من الجهد والعمل لإقامة وحدته أن يحققوا ذلك .

وقد ركزت القوى الأجنبية الغازية على الرغم من اختلاف أهدافها على دعم هذه الركيزة التى يجب أن يكون استئصالها والقضاء عليها ضرورة أساسية فى سبيل تحقيق الوحدة الإسلامية . يؤكد الشيخ رشيد رضا أن جمال الدين الأفغانى هو أول من دعا إلى الوحدة الإسلامية بإصدار العروة الوثقى (١٣٠١هـ - ١٨٨٤) .

مفهوم الجامعة الإسلامية

كما صوره السيد جمال الدين الأفغانى (العروة الوثقى)

يقول السيد رشيد رضا (ص ٣٠٦ الجزء الأول من سيرة الأستاذ الإمام) كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الإسلام الأولى إلى وحدته وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فى إقامته وتأسيس حكومته وسيرة السلف الصالحين فى هدايته ، وسيرة القواد الفاتحين فى تشييد صروح سيادته

ومذاهب الأئمة المجتهدين أى طرقهم العلمية الاستقلالية فى تدوين شريعته ، ومناهج الحكماء والفنانين فى تكوين حضارته وتوجيه جميع شعوبهم إلى استقلال بلادهم واتحادها وتعاونها على إحياء مجده بترك عصبيات المذاهب والجنسيات المفرقة لكلمة أهله .

أما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الإسلامية أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة فلم أره فى شىء من العروة الوثقى ولا فى غيرها مما كان يرويه عنه الأستاذ الإمام (أى الشيخ محمد عبده) وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال فى المقالة التى وضعنا لها عنوان (الوحدة الإسلامية) التى نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى :

« لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحداً فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقاءه ، إلا أن هذا يعد كونه أساسا لدينهم تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذا الأوقات .

وضرب لهم فى المقالة التى أنشأها لدعوة الإيرانيين والأفغان للاتفاق والاتحاد مثلا بالشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين فى النصرانية على نحو اختلافها وقال : فلما كان هذا الاختلاف الفرعى أثّر فى الوحدة السياسية ظهر الضعف فى الأمة الألمانية وكثرت عليها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة فى سياسة أوربة وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية ، وراعوا الوحدة الوطنية فى المصالح العامة ، رجع إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوربا وبيدهم ميزان سياستها .

ويقول : لقد بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة والسلاطين فى جنس واحد مع تباين الأغراض وتعارض الغايات .

ولقد بيّن جمال الدين العقبات التى تقف أمام تحقيق الغاية ، وأهمها بالنسبة للحكم .

أولا : جور الحكام وخروجهم على أصول العدالة الشرعية فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية .

ثانيا : أن بعض ما تطرأ على الممالك الإسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الأصول القديمة التى بنيت عليها الديانة الإسلامية فإذا رجعوا إلى قواعد شرعهم جمع الله الكلمة بعد افتراقها .

وأشار إلى الخطر المباشر فقال : لقد ضرب الفساد فى نفوس الأمراء بمرور الزمن وتمكن من طباعهم حرصا لجمع باطل فانقلبوا مع الهوى وسلط عليهم غايات المجد المواثل فقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطة ومظاهر الفخفخة واختاروا موالاة الأجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنسية .

ثالثا : أما بالنسبة للثقافة فقد أشار إلى المخاطر التالية :

أولا: إنشاء المدارس على نحوما فى أوربا ووضع العلوم الغربية فى مواضعها على الوجه الموصل إلى مقاصدها على نحو فرق بين الأقطار وأوجد بينها خلافا لتدخل الأجانب تحت اسم النصحاء .

والمتخرجون من هذه المدارس هم الذين أضعفوا الأمة بدلا من أن تنال بهم المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين واهتمامهم بألفاظ الحرية والوطنية والإسراف فى التزيد محاكاة للأجانب وما ينسف ذلك من ثروة البلاد إلى غيرها ويميت الصناعات الوطنية .

ثانيا : المتفرنجون المقلدون فى كل أمة ، المنتحلون أطوار غيرها يكونون منافذ وكوى لتطرق الأعداء إليها فهم يعظمون الذين قلدوهم .

***

كذلك فقد هاجم جمال الدين الذين يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع شعوبها ويدلل على كذب المستعمرين ويصفهم بأنهم فى بلادهم أكبر عصبية للدين فى كل ما يجرى عليه سياستهم .

وبالجملة فقد رمى جمال الدين الأفغانى إلى :

١ـ تجديد الإسلام وإصلاح ما أفسدت فيه البدع والعصبيات المذهبية والجنسية بإحياء الرابطة الإسلامية الأولى التى عناها قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

٢ـ الجمع بين الرابطة الإسلاميه والرابطة الوطنية فى البلاد التى تتعدد فيها الملل بحيث لا تجد الأقليات المسلمة أدنى امتعاص ولا شكوى من الإصلاح الإسلامى الذى جرى عليه

وأشار إلى عناية الإفرنج الطامعين فى بلاد المسلمين ببث الدعاية لتنفيرهم من العصبية الدينية لعلمهم أنها لا تكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم هذه الصلة المقدسة وقصم صلبها ؛ لينقضوا بذلك بناء الأمة الإسلامية ويمزقوها شيعا وأحزابا بينما الإفرنج يجعلون من قواعده الأساسية فى حكوماتهم الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بأمره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم .

***

غير أن صيحة جمال الدين الأفغانى إلى الوحدة الإسلامية كانت تغالب الأحداث التى كانت قد بدأت فعلا فى تنفيذ برنامج السيطرة الغربية الواسعة وخاصة بعد سقوط مصر فى قبضة الاستعمار البريطانى .

وكانت الحركة الوطنية منذ عهد عرابى تجرى فى أوطان الوحدة الإسلامية فحين ثار عرابى على فساد أساليب الحكم فى مصر وعلى تغلغل النفوذ الأجنبى كان يتحرك فى إطار الوحدة الإسلامية وقد أعلن العرابيون أنهم فى كل خطواتهم يرمون إلى الدفاع عن الدين الإسلامى كما أورده صاحب مصر للمصريين جـ ٥ ص ١٩٤ .

ولما جاءت حركة الحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش كانت تتحرك فى إطار الإسلام ، وترى أن الجهاد الوطنى جزء من الجهاد الإسلامى بمفهومه الجامع ولم تنحل هذه العقدة إلا حين جاء سعد زغلول ربيب كرومر فدعا إلى فصل العمل الوطنى عن الحركة الإسلامية كما سنبين. وقد سار خلفاء جمال الدين على خطته ما وسعتهم الظروف

فقد كان احتلال بريطانيا لمصر عاملا من عوامل تغير الخطط الخاصة بالدفاع عن الوحدة الإسلامية حيث أخذ الإنجليز يحملون على الجامعة الإسلامية حملات شديدة ويهاجمونها هجوما قاسيا فتحول خلفاء جمال الدين محمد عبده ورشيد رضا على امتداد عمله فى المنار ، وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب إلى صهر هذه المعانى فى برامج ثقافية واجتماعية .

فقد دعا الشيخ رشيد رضا إلى إنشاء هيئة للدعوة والإرشاد من مبادئها أن الأخوة الإسلامية فوق فروق الجنسية والقومية وأن المسلمين أمة واحدة وأن الروابط بين المسلمين تقوم على الشريعة الإسلامية والعادات الاجتماعية المنبثقة من تعاليم الإسلام ، وأن لغة المسلمين هى العربية وأن ليس للمسلمين جنسية من غير دينهم ولا يخضعون باختيارهم سرا ، أو جهرا إلا لحكومة شورية تحكمهم بشريعتهم .

وقد ظلت مجلة المنار تحمل لواء الدعوة لما دعت إليه حركة الإصلاح ، أو حزب الإصلاح الذى أنشأه الشيخ محمد عبده والذى قام على أساس :

١ - تحرير العقيدة الإسلامية من البدع والخرافات والعودة إلى مفهوم الإسلام قبل ظهور الخلاف .

٢ - إحياء اللغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم .

ويقرر رشيد رضا أن مفهوم حزب الإصلاح الإسلامى فى استرجاع مجد الشرق لايكون بالاعتماد على الغرب فى الإصلاح وإنما يكون بقوة الإسلام وبالعودة إلى أصول الإسلام وآدابه وتعاليمه الصحيحة ، وأن انحراف المسلمين عن جادتها هو الذى سلبهم ما كسبوا ؛ فالرجوع إليها هو الذى يؤلف بين قلوبهم ويجمع كلمتهم ويرجع لهم سيادتهم .

وقد دعا السيد رشيد رضا إلى إقامة مفهوم أهل السنة والجماعة على قواعد أساسية ومعارضة مفهوم علم الكلام والباطنية والجهمية المقلدة كما عارض موقف المتفرنجين ودعا المسلمين إلى الإقبال على العلوم الرياضية والطبيعية التى هى محور الثروة والقوة والعزة وأن الدين لا يمكن حفظه إلا بالدنيا فيجب أن نجمع بين علوم

الدين وعلوم الدنيا (الرياضيات والطبيعيات) وأن أحكام الشريعة الإسلامية تصرح بأن تعلم الصناعات التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم واجبة على مجموع الأمة .

***

(٢)
(يا مسلمى العالم اتحدوا)

ومن ناحية أخرى كان السلطان عبد الحميد قد تبين أن الخطر الزاحف على عالم الإسلام يتطلب موقفا حاسما لا يكتفى فيه بالعمل فى دائرة الدولة العثمانية التى تجمع بين عنصرى الأمة : العرب والترك وإنما يتطلب الأمر توسيع دائرة العمل وكان لجمال الدين الأفغانى دور فى تعريب الفرس الذين كان الاستعمار قد عمل على إقامة الجفوة الواسعة العميقة بينهم وبين الترك من أجل حرمان الأمة الإسلامية من الوحدة .

وقد خطا السلطان عبد الحميد خطوات واسعة فى هذا الصدد فأرسل عدداً من الدعاة إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

ويمكن القول : أن السلطان حين رأى الدولة العثمانية قد فقدت التفوق فى مجال القوة العسكرية التى يمكنها من أن تقهر أعداءها وإزاء المخططات التآمرية التى كانت تنفذ بواسطة الروس والبريطانيين والفرنسيين واليهود من وراء الخطوط .

والمعروف أنه فى عام ١٨٩٧ اجتمع مؤتمر بال وقرر اختيار فلسطين لإقامة الوطن القومى اليهودى وتجدد أمر الاتصال بالسلطان والدولة العثمانية حيث رفض السلطان كل العروض وارتفع فوق كل المغريات والتهديدات أيضا ومن ثم بدأت المعركة الخفية التى كانت ترمى إلى الإطاحة به ، وكان السلطان قبل ذلك قد أمضى عزيمته فى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وعقد التآصر بين المسلمين فى خارج الدولة العثمانية تحت لواء الوحدة الجامعة لمواجهة خطر النفوذ الاستعمارى الزاحف على العالم الإسلامى .

وقد لقيت صيحة السلطان عبد الحميد « يا مسلمى العالم اتحدوا » استجابة واسعة خارج نطاق الدولة العثمانية بوصفه زعيما للعالم الإسلامى كله وليس للدولة العثمانية وحدها وبدأت حركة تجمع أزعجت الغرب ، وكان من أخطر الإنجازات بدء تصفية الخلاف بين تركيا وفارس ، أو بين السنة والشيعة ومن كلماته فى هذا الصدد : أن السم القديم يجب ألا يسرى فى جسد آسيا القوى وعلى السنيين والشيعة

أن يتحدوا لمقاومة أوربا فى محاولتها قهر العالم الإسلامى وكانت خطواته العملية الحاسمة فى بناء خط سكة حديد الحجاز الذى كان يعوّل عليه فى سرعة الاستجابة بين أجزاء المملكة الواسعة .

ويرى المؤرخون أن الدهاء السياسى فى مواجهة خطر الغرب كان هو سلاحه الوحيد الذى يستطيع به مواجهة مؤامرات دول الغرب فكان يضرب بعضهم ببعض وقد شعرت إنجلترا وفرنسا (وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان قهرا أكبر عدد من المسلمين) بحرج الموقف إزاء التفاف العالم الإسلامى حول الخليفة وحسبت لذلك ألف حساب ، ولا سيما حينما أيدته ألمانيا العدوة لهذه الدول وحين كسر الخلاف مع الشيعة وبدأ يعقد صلحا معهم بعد استقدام جمال الدين الأفغانى وحين بدأ يأخذ الأسلوب العصرى فى الوحدة بإقامة سكة حديد الحجاز وقد جمع لها سبعة ملايين من الدنانير وكذلك سكة حديد بغداد ، وقد أشارت الدكتورة ادا ولتن فى كتابها (عبدالحميد ظل الله فى الأرض) أنه كان لديه أربعون ألفا من الدعاة للوحدة الإسلامية ممن كانوا فى القسطنطينية من طلبة المعاهد الإسلامية وقد وجه دعوته إلى روسيا وشمال إفريقيا والهند والصين وإلى المسلمين أينما وجدوا ومن أى جنس كانوا فى الوقت الذى كانت أوربا تنتظر بفارغ الصبر موت (دولة الرجل المريض) لتقسيم ميراثها وتوزيع إرثها فيما بينها .

وليس أدل على براعة السلطان عبد الحميد من عبارة السيد جمال الدين الأفغانى الذى قال بعد أن التقى بالسلطان وتعرف إلى مشروعه فى الجامعة الإسلامية وأسلوبه فى العمل السياسى مع دول أوربا :

إن السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة « فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب . إنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامى الدول الغربية وقد جعل لكل هوة تطرأ على الملك مخرجا وسلما، وأعظم ماأدهشنى ما أعده من خفى المسائل وأمضى العوامل كيْ لاتتفق أوربا على أمر خطير فى الممالك العثمانية وكان يراها عيانا محسوسا، إن تجزئة السلطة العثمانية لايمكن أن تقع إلابخراب الممالك الأوربية

بأسرها ، وكلما حاولت دول البلقان الخروج على الدول بحرب ، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه » .

وقد شعر السلطان عبد الحميد بحسّه السياسى الواعى أن فكرة تهجير بضعة آلاف يهودى إلى فلسطين هى خطة متآمرة ترمى إلى تحطيم الوحدة الإسلامية ولذلك قاومها منذ اليوم الأول بالرغم من الإغراءات والتهديدات ودفع حياته ثمنا لها ، وقد كان إعداد القوى الخارجية لحزب الاتحاد والترقى فى محافل الماسونية لقتل السلطان عبد الحميد من الأعمال الخطيرة التى فتحت الطريق أمام تمزيق وحدة العالم الإسلامى أولا وتمزيق الدولة العثمانية . وكان منطلق العمل لذلك هو الدعوة إلى إحياء القومية الطورانية التى أعد لها ودافع عنها عدد كبير من عتاة الفكرة الاستعمارية واستطاعوا تكوين جيل فى حمى المحافل الماسونية من أجل إعلاء فكرة الذئب الأغبر والقضاء على الوحدة الإسلامية .

« لقد كان هدف النفوذ الاستعمارى منذ أول الأمر هو تمزيق الرابطة بين العرب والترك أساسا للقضاء على نقطة الوحدة تحت شعار الخلافة ، وكان رأى غير المتحمسين لدعوة الانفصال هو أن الغرب لن يسمح بعد إسقاط الدولة العثمانية من قيام وحدة جديدة ولو على مستوى الأمة العربية كما كان يتوقع الكثيرون بعد الحرب العالمية الأولى ، وقد صدقت النتائج هذا التوقع ، فقد أوقع المتآمرون العداء والصراع بين العرب والترك وكان مخلب القط فى ذلك هم الاتحاديون (بينما ينسب المؤرخون زورا وخطأ هذه المؤامرة للأتراك) الذين حكموا بعد أن أزالوا السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ حتى الحرب العالمية الأولى وهؤلاء وحدهم ، وفترة حكمهم يمكن أن يوجه إليها الاتهامات التالية :

١ – تمزيق الوحدة الإسلامية .

٢ – القضاء على الدولة العثمانية .

٣ – إسقاط الخلافة الإسلامية .

٤ – إرغام العرب بمختلف ألوان الظلم والاضطهاد على الانفصال .

هؤلاء الاتحاديون هم ثمرة الدعوة التى نقلت شعاراتها من الثورة الفرنسية والتى بدأت عملها منذ وقت طويل بقيادة مدحت وغيره من أجل إسقاط النظام الجامع للمسلمين بأى ثمن .

***

يقول الكولونيل عبد الله التل فى كتابه (الأفعى اليهودية فى معاقل الإسلام) : إن الصليبية الغربية الحاقدة على الإسلام والمسلمين بعد أن رأت امتداد رقعة الإسلام ولا سيما بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح وزحف الإسلامى حتى أبواب فينا ، فقد وضعت الصليبية الحاقدة نفسها فى خدمة اليهودية العالمية لتسخرها رأس الأفعى اليهودية فى مساعدته على تحقيق خطط الهدم والتخريب ومن أجل هذا تحالفت قوى الصليبية الأوربية فى دول عديدة هى بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ للبناء وقد أدى الضغط الصليبى المستمر إلى تضييق رقعة الإسلام فى أوربا ، كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطنة التى تمتد من تركيا شمالا إلى حضر موت جنوبا ومن إيران شرقا إلى طنجة غربا فضاعت الجزائر سنة ١٨٣٠ ثم احتلت مصر درة تاج السلطنة ١٨٨٤ ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب ونجح يهود الدونمة بمساعدة محافل الماسونية فى تكوين جمعية تركيا الفتاة والتى كان مدحت نفسه أول مؤسسيها وتفرع منها حزب أو جمعية أسموها (الاتحاد والترقى) حملت شعار الحرية والإخاء والمساواة الذى نقلته عن الثورة الفرنسية التى دبرها الماسون كذلك . وتركز نشاط جمعية الاتحاد والترقى فى سلانيك حيث محافل الماسون التى يديرها يهود الدونمة وغيرهم من اليهود الذين ظلوا على يهوديتهم. ولايخفى الماسون علاقتهم بالانقلاب العثمانى الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد » الخ .

نعم لقد عجّل بالسلطان عبد الحميد موقفه الحاسم من اليهود ، وبناء خط سكة حديد الحجاز ودعوته إلى توسيع نطاق الوحدة الإسلامية فكانت الخطة المعارضة تقوم فى ظل الاتحاديين وهى إعادة الدعوة إلى الجامعة الطورانية وحمل نصارى لبنان عملية تأليب الغرب على دولة الخلافة متعاونين مع الماسونية الأوربية .

يقول الكولونيل عبد الله التل: بيد أن الدعوة إلى القومية لم تنطل على الكثير من زعماء العرب المسلمين ولم يخف عليهم الأصبع اليهودى الماسونى الذى كان يحركها وهو الأصبع الذى يحرك الدعوة إلى الطورانية ليعطى للعرب مبرراً للقيام بدعوتهم إلى القومية العربية ومن أبرز الكتاب والزعماء الذين تنبهوا لخطر هذه الدعوة القومية : مصطفى كامل وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأحمد شوقى ، وكان لابد من أن يلحظ المرء الفرق الشاسع بين أخطار الداعين إلى القومية العربية يقيمونها على أنقاض الخلافة وبين الداعين إلى أن ينال العرب حقوقهم فى ظل الخلافة ، ومن تمزيق الدولة العثمانية إلى إسقاط الخلافة الإسلامية حتى لا يجد المسلمون منطلقا للوحدة الإسلامية ، « وبدلا من الوحدة الإسلامية القوية الشاملة التى كانت تضم الأبيض والأسود والهندى والفارسى والأفغانى والعراقى والقفقاسى والتركستانى والبربرى والمغربى والسودانى والصينى والكردى والنجدى واليمانى والسورى والألبانى والبشناق ... الخ زرعت بذور الفرقة والتمزق بين هذه الأجناس جميعا وأخذ كل جنس يطالب بإحياء قوميته ويتوق إلى الاستقلال الذاتى وكانت دور السفارات الغربية ملتقى دعاة القومية العربية يتلقون منها النصح والإرشاد والمعونات التى تساعدهم فى المضى فى الدعوة إلى القومية العربية ، وحين تطورت الدعوة إلى القومية العربية وأخذت شكل أحزاب منظمة لم يكن غريبا على العالمين بأصول الحركة وجذورها أن يروا أسماء أغلب دعاتها وقادتها منحصرة فى (جورج وأنطون وميشال ونقولا وكلوفيس ثم كانت الخطوة الأخرى : خطوة تولى مصطفى كمال أتاتورك قيادة تركيا وانقلابه الشامل على الطابع الإسلامى وإخراج تركيا دولة الخلافة الإسلامية من كل عوامل الإسلام نفسه قانونا ولغة وتقاليد ومجتمعا فكانت أولى الدول العلمانية فى البلاد الإسلامية .

***

وهكذا استطاع النفوذ الأجنبى :

١ – إخراج جمال الدين الأفغانى من مصر والقضاء على حركة عرابى .

٢ – إخراج السلطان عبد الحميد من عمله وإسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية وإقامة الجامعة الطورانية وفصل العرب عن الترك وإثارة الخلافات بينهم إلى حد إقامة المشانق ، وكان نظام الاتحاديين مقدمة لنظام أتاتورك الذى صفى إسلامية الوجود التركى وقضى على كل معالم الوحدة الإسلامية ودفع تركيا إلى أن تولى وجهها إلى الغرب وذلك لتعميق الأقليميات ولو إلى حين ، وتأكيد طابع العلمانية فى البلاد الإسلامية وإلغاء الحروف العربية فى اللغة التركية والاتجاه نحو اللاتينية .



الباب الثانى

النفوذ الغربى وخطة تمزيق الوحدة الإسلامية

الفصل الأول
مخطط تدمير الوحدة الإسلامية

كان النفوذ الغربى واعيا بأن الخطر الذى يحول بينه وبين صهر الأمة الإسلامية فى بوتقة الحضارة العالمية ، أو الأممية إنما هو الإسلام بقدرته الواعية فى المحافظة على الشخصية الإسلامية من الانصهار والاحتواء والإذابة ، فقد كانت فكرة (الوحدة الإسلامية) القائمة على مفهوم الأخوة والبذل والتضحية والغيرية من الأسس الأصيلة التى أقامها الإسلام فى النفس المسلمة من أجل حماية الكيان وحفظ الزمام وذلك بالفداء وإعلاء فريضة الجهاد الماضية إلى يوم القيامة :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله** ﴾[1] .

فالمسلمون مدعوون جميعا إلى حماية وجودهم وإعداء العدة حتى لا يفاجئهم العدو بانتزاع جزء من وطنهم ، ولقد ظل المسلمون على مدى عصور التاريخ الإسلامى يقومون على هذه الفريضة حتى إذا غفلوا عنها ضربوا فى سقوط بغداد فى أيدى التتار ولكنهم سرعا ما استطاعوا أن يردوا فى عين جالوت زحف الإفرنج والإدالة منهم وذلك عندما عادوا إلى تصحيح مفهومهم . وكانت الحروب الصليبية امتحانا قاسيا للمسلمين ، امتد قرنين من الزمان ، فقد علم المسلمين أن الحفاظ على الوحدة الإسلامية هو العامل الأول فى حماية الوطن الإسلامى وفى رد الأعداء عنه إذا نزلوا به ، ومهما قيل من أن الدول الاستقلالية التى قامت فى ظل الخلافة الأموية أو العباسية كانت انفصالية فإن ذلك لا يمثل الواقع إلا عندما اهتزت علاقات الوحدة الإسلامية وانكسرت الحصون الحامية لها .

ومن هنا فإننا مطالبون بإعادة روح الجهاد إلى الأمة الإسلامية وأن نعتبر قضية القدس وفلسطين هى حجر الزاوية فى بناء الوحدة الإسلامية.وفى الجولة التى بدأها الاستعمار عندما تداعت القوى الإسلامية كان مخطط الغزو يرمى إلى تمزيق الوحدة الإسلامية أساسا بحيث لا يتمكن المسلمون من جمع شملهم ، أو تأكيد وجودهم كأمة كبرى تسيطر على مقدرات قارتين كبيرتين ، وقد كشف زويمر قائد حركة التبشير الغربى فى أرض الإسلام هذا الهدف فى وضوح عندما قال :

(١) سورة آل عمران : ٢٠٠

إن انتصار الاستعمار الحقيقى هو فى هدم الوحدة الإسلامية وإحلال القومية محلها وما علينا إلاأن ننفخ فى بوق القومية فتنقاد لها الشعوب وهذا هو الانتصار العظيم » .

ومن هنا ومن أجل تحقيق الهدف : كان لابد من تقديم تصور للإسلام خال من فريضة الجهاد وهو ما قام به دعاة القاديانية والبهائية من أجل كسر شوكة المرابطة والإعداد ، وتذليل المسلمين تحت اسم التسامح وعن طريق إدخال السموم التى تحطم الأجسام والعقول لهدم القوة القادرة على الانبعاث وقت الخطر ، على النحو الذى صوره الأثر الشريف (إذا دنست أرض الإسلام خرجت الجارية بغير إذن سيدها والمرأة بغير إذن زوجها) .

ومن ناحية أخرى جرى العمل على إعلاء شأن الإقليميات والقوميات فى خطة عريضة ارتبطت بالحفريات وإحياء ما قبل الإسلام ، والارتباط بالفرعونية والفينيقيةوالبربرية والأشورية الخ .

وكانت الدعوة إلى تغليب (فكرة الوطن) والأرض والتراب كلها محاولات لصرف المسلمين عن الرباط الأساسى وهو الوحدة الإسلامية الجامعة ، وفق مفهوم ساذج هو تحرير جزء من أرض الإسلام بينما تظل الأجزاء الأخرى محتلة والمسلمون فيها مستعبدون .

ثم تنامى هذا المخطط واتسع على النحو التالى :

- ضرب اللغة العربية وإحياء اللهجات وفتح الطريق أمام اللغات الأجنبية .
- إحياء الخلافات القبلية والسياسية والدينية .
- احتواء المثقفين فى دائرة الثقافة الغربية والولاء الغربى والإعجاب بعظماء الغرب وتاريخه وبطولاته .
- الحملة على القيم الإسلامية وإشاعة روح الازدراء بالتاريخ واللغة والتراث .
- تمزيق جبهة المقاومة وفصل الحركات الوطنية عن الحركة الإسلامية .

ولما كان الإسلام فى الحقيقة هو مصدر كل الحركات التى قامت لمواجهة المستعمر على طول العالم الإسلامى وعرضه ، وذلك باعتراف كتاب الغرب أنفسهم ، فقد عمد النفوذ الغربى إلى إعداد أجيال جديدة لتحمل فكرته وتدافع عن وجهته وعندما وصل الاحتلال الغربى إلى أرض مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر ، وكان فى كل هذه المناطق رجال أبرار يحملون لواء المقاومة وقد حملوها سنوات طويلة ولم تهزمهم إلا الخيانة . أحمد بن عرفات فى الهند والشيخ شامل فى القوقاز وعبد القادر الجزائرى فى الجزائر وعبد الكريم الخطابى فى المغرب والسنوسى فى لبيا والمهدى فى السودان ، وعرابى فى مصر كل هؤلاء حاربوا ووقفوا فى وجه النفوذ الاستعمارى بالسيف ، وهناك من وقفوا بالكلمة والجهاد : أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز الثعالبى وهؤلاء سرعان ما قضى عليهم النفوذ الغربى وقدم أولياءه الذين كانت صيحتهم : الالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق ، أو صيحة (خذ وطالب) ، أو سياسة المراحل وكان هؤلاء جميعا هم رعاة العلمانية الذين فصلوا بين الحركة الوطنية والوحدة الإسلامية وفى مقدمتهم فى مصر سعد زغلول وقد وصل أحدهم (مصطفى كمال أتاتورك) إلى القمة . وسرعان ما استطاع كرومر فى مصر (وأمثاله فى البلاد الإسلامية) من تصفية هذا الجيل من المجاهدين الذين يؤمنون بأن الحركات الاستقلالية جزء من الجهاد الإسلامى وفرض مفهوم المنفصل العلمانى .

وبذلك عمقت فكرة الإقليمية واتسع نطاقها وأخذت المدارس تخرج أجيالا جديدة لا تعرف إلا تاريخ الإقليم الذى تعيش فيه ولا تعلم شيئا عن الرابطة الإسلامية الواسعة التى تجمعهم سواء من خلال تاريخ أربعة عشر قرن ، أو من خلال عقيدة ومنهج حياة ، أو من خلال وطن إسلامى وجنسية واحدة .

عندما ركز النفوذ العربى على هذا الهدف : هدف تدمير الوحدة الإسلامية وضع له مخططا خطيرا بحيث لا يستطيع أن يفلت المسلمون منه على الأقل فى الوقت الحاضر – وهو مكون من عدة عناصر متكاملة :

أولا : السيطرة الكاملة على الثقافة بحيث لا تفلت منها الأجيال المتصدرة للسيادة والقيادة وحتى تظل على ولائها للغرب والإعجاب به والنظر إلى مفاهيم الإسلام على أنها تراث قديم أو (مأثورات) كما يحلو للبعض أن يصفها – والاعتقاد بأن الإسلام دين عبادة ، لا دين حكم .

ثانيا : السيطرة على الصحافة والإعلام والثقافة حتى تستمر عملية البث الخطيرة ماضية فى طريقها لهدم قيم الإسلام والتشكيك فيها .

ثالثا : الحيلولة دون الالتقاء بين الأقطار الإسلامية ، أو إقامة وحدات سياسية بينها وبين البعض الآخر ، وإثارة روح التآمر والدس بين بعضها البعض ، حتى تظل على خوف ووجل وحتى لا تلتئم بالثقة فى وحدة جديدة .

رابعا : إعلاء شأن الإقليمية عن طريق شظايا تاريخية تافهة ، ليست إلا جزءًا مستقطعا من تاريخ الإسلام العريض الحافل بالبطولات ، ولكنها تعرض على أنها تاريخ إقليمى مستقل فضلا عن إحياء تاريخ ما قبل الإسلام فى هذه الأقطار .

***

وكان تنفيذ المخطط يتطلب :

١ – القضاء على وحدة المسلمين قبل السيطرة عليهم للتعامل معهم على أنهم فصائل ضعيفة لا قدرة لها على التجمع للمقاومة .

٢ – الحيلولة دون قيام اتحاد فيما بينهم على أى مستوى، سواء أكان العروبة، أم الشرقية ، أم غيرها فإذا قام هذا الاتحاد فلابد من التآمر عليه بالدس والمكر حتى ينحل ويسقط .

٣ـ أكبر المخاطر التى تستخدم لتحول دون وحدة المسلمين : العلمانية والقومية .

٤ – القضاء على الوحدة الفكرية التى تجعلهم يتفرقون إلى شطائر عن وجهة واحدة وذلك بتزييف مفاهيم الإسلام الكبرى وإثارة الشبهات حول أسس هامة : الجهاد ، مفهوم النصر ، الحكم ، المرأة ، نظرية التناسل مع

العمل على توسيع دائرة الفوارق المحلية والإقليمية ، وانبعاث التاريخ القديم السابق للإسلام .

٥ ـ محاولة تقديم الفكر الإسلامي إليهم عن طريق زائف وفرض نظريات غريبة على تفسير التاريخ ، أو دراسة اللغة ، أو نظريات التربية ، أو نظم الحكم .



الفصل الثانى

القوميات والتعليم والصحافة

تلك هى الأسلحة الثلاث التى حملها النفوذ الأجنبى للقضاء على الوحدة الإسلامية وكانت الدعوة إلى القومية الطورانية فى تركيا عاملا أساسيا فى الدعوة إلى القومية العربية بل إن بعض الباحثين يرى أن الذى كان يغذى الدعوتين هم جماعة من الدونمة والمستشرقين وعتاة الإستعماريين ، وكان الوجه الواضح : أن الذين دعوا إلى القومية العربية أساسا المارون ونصارى لبنان الذين حملوا لواء ذلك إلى كل بلاد العرب بوصفهم خريجى الإرساليات التبشرية التى تركز عملها الأكبر على التعليم والصحافة من أجل توجيه أجيال جديدة – وخاصة أبناء الزعماء والسراة والقادة – لإعدادهم لحمل لواء العمل وكان لطفى السيد فى مصر يؤيد هذا الاتجاه ويهاجم الاتجاه الذى يدعو إلى تعليم أبناء الشعب ويرى قصر التعليم على أبناء السراة وذلك بتوجيه من كرومر وذلك يؤكد أن المخطط كان مشتركا فى العمل بين الإرساليات فى مصر ولبنان واستانبول حيث نشأت أولى ركائز العمل فى معاهد الأمريكيين والفرنسيين التى انبثت فى هذه المناطق وهكذا بدأت فكرة القومية فى البلاد العربية على أيدى المارون وخريجى معاهدالإرساليات . وكان للتبشير النصرانى أثره البعيد فى إعداد هذا المخطط وتنفيذه حيث يقول جاردنر فى مؤتمر أدنبره للتبشير ١٩١٠ :

(نحن مطلعون على الحركة العصرية التى تؤثر فى الممالك الإسلامية الوسطى تركيا ومصر وفارس والهند وكلها أقطار قد وجدت الأقطار الأوربية طريقها إليها وقد أنتجت خميرة سياسية وفكرية وكلاهما تباعا يؤثران فى الدين وهكذا عمد النفوذ الغربى بعد أن أتيحت له فرصة السيطرة على العالم الإسلامى وبعد سقوط السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ الذى فرحت الإرساليات التبشرية بسقوطه فرحاً شديداً اذ فتحت لهم أبواب الممالك الإسلامية على أيدى أحبائهم

الاتحاديين وغلبة القوميات والإقليميات بعد ذهاب صاحب الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، وعزله ، وكما نقل النفوذ الغربى معركة القوميات من الغرب إلى عالم الإسلام فقد نقل أيضا الفكر الغربى الذى يساعد على تمزيق وحدة الفكر الإسلامى وقد انتشر هذا الفكر فى العالم الإسلامى كله داعيا إلى إعلاء العصبيات الجنسية والقبلية والوطنية والجغرافية التى وأدها الإسلام فبدأت زعامات تحمل لواء هذا الفكر ؛ لتهدم ما أقامه الإسلام حين جمع المسلمين على كلمة التقوى وجعلهم بفضل الله إخوانا يقول الموردى فى كتابه (الإسلام اليوم) :

فإذا حدث للمسلمين بعد تمزق وحدتهم : لقد ضربهم العدو ضربا شديدا ، ومازال يضربهم ، وعليهم أن ينقذوا أنفسهم من هذا الخطر الذى لن يتخلى عنهم إلا عندما يعود المسلمون إلى وحدتهم . ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبى قادراً فى هذه المرحلة وخاصة بعد سقوط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية (١٩١٨ – ١٩٢٤) على تعميق هذه الخلافات حتى لا يلتقى المسلمون مرة أخرى ، خاصة بعد أن زرع إسرائيل فى قلب عالمهم .

لقد عمد النفوذ الأجنبى إلى إثارة عشرات النوازع ، سواء العصبية القائمة ، أو التاريخ القديم ، أو الشعارات القبلية ، أو الفوارق العنصرية .

***

لقد كانت الحركات التحريرية التى قامت فى الأمة الإسلامية والعالم الإسلامى تخرج من مصدر واحد هو مفهوم الإسلام فى الجهاد وحماية الزمار وحفظ البيضة والخروج إذا ديست أرض المسلمين ، ولقد أقام المسلمون على ساحل البحر الأبيض المتوسط من طرطوس على حدود تركيا إلى رباط الفتح أكثر من ألف رباط أقام فيها المجاهدون المسلمون لحصار حركة القوى الأجنبية ، ولكن المسلمون مالبثوا أن تقوقعوا فى قضية الأرض والوطن والتراب ، ولم يمدوا أبصارهم إلى الوحدة الكبرى بل أكدوا هذه الإقليمية ، ورفعوا راياتها ، وحاولوا أن يوجدوا لها فى التاريخ القديم (السابق للإسلام) أصولا زائفة ، حيث توقفت برامج التعليم والثقافة عن الحديث عن الرابطة الإسلامية والجامعة الإسلامية

والأخوة الإسلامية ، ولم تعد تحتضن الإسلام كجنسية ، أو تتنادى بكل مسلم فى كل أرض إذا نادى .

وعمد الاستعمار والنفوذ الأجنبى إلى ازاحة القادة الإسلاميين المؤمنين بالوحدة الإسلامية واستبدلهم بزعامات رباها وأقامها من العلمانيين وسلمها مقاليد الحكم فى كل أجزاء البلاد الإسلامية ، هؤلاء الذين كانت تركيا العلمانية مثلهم الأعلى ، ووجهتهم ، وهم الذين دعموا مفاهيم الإقليمية والعلمانية معا ، والذين أعلنوا إعجابهم بالغرب وحضارته ونقلوا نظمه وقالوا : إنها المخرج الوحيد للمسلمين والعرب من أزمة التخلف ولكن السنوات التى مرت وهى تحمل المساءة الشديدة للمسلمين كشفت كذب هذه الدعوى المدعاة وكانت النكبة والنكسة والهزيمة وسقوط القدس فى أيدى اليهود ، كلها دليل على فشل التجربة الغربية التى احتضنها العلمانيون الذين رباهم النفوذ الأجنبى على عينه .

كانت دعوة هؤلاء إلى نقل المفاهيم الغربية والقيم الغربية وقبولها تحت اسم التسامح مع الغير وعالمية الثقافة والنزعة الإنسانية العالمية ، ناسين أن ذلك كله من البضاعة الماسونية مقدمة للصهيونية التى وضعت بروتوكلات صهيونية لاغتيال الإسلام .

بل إن سماحة الإسلام التى خدعوا بها هى التى مكنت القوى الأجنبية فى الدولة العثمانية من إقامة قواعدهم فى قلب الدولة العثمانية وتركيز أعلامها ومن هذه القواعد انطلقت حركة الاتحاديين والدونمة والطورانية لهدم الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، باعتبارها قاعدة الوحدة الإسلامية بل إن الدعوات التى قامت باسم الإسلام ، ودخلت معارك كمعركة الجزائر وفتح والعاشر من رمضان استطاع النفوذ الأجنبى محاصرتها واحتواءها وأسقط معانيها وقيمها .

ولقد أصبح واضحا بأن الشعوب الإسلامية المجاهدة قد اندفعت فى معركتها التحريرية باسم الإسلام فنصرها تبارك وتعالى ؛ لأنها آمنت بسنة الإسلام فى مقاومة الغزو الخارجى ، ولكن سرعان ما خدع المسلمون واستطاعت المؤامرة أن تسقط خططهم وأن يهزمهم العدو بالخيانة (الخيانة التى هزمت عرابى وعبد القادر الجزائرى والخطابى وشامل) وما إن تحقق النصر حتى استسلمت الأوطان للمتفرغين

العلمانيين أولياء الاستعمار بعد أن قضى على المجاهدين بالموت ، أو النفى ، بل إن بعض القادة خدعوا شعوبهم كما فعل مصطفى كمال وسوكارتو فما إن انتصروا حتى أزالوا الوجود الإسلامى وانقلبوا عليه .

الفصل الثالث

مؤامرة التغريب

كانت مؤامرة التغريب التى أخفاها النفوذ الاستعمارى الغربى أكثر من مائة عام هى التى كشف عنها (هاملتون جب) وأربعة من المستشرقين عام ١٩٣٠ فى كتابه (وجهة الإسلام)[١] الذى قدم فيه تصوراً لما قام به التغريب فى سبيل إخراج المسلمين من وحدتهم الإسلامية وصهرهم فى الوحدة الغربية المسيحية ، والتغريب يعنى أن يصبح المسلمون غربيين فكرا وعقيدة ووجهة وحضارة وكيف أن هذا هو الهدف الحقيقى من هدم الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية والقضاء على جذور الوحدة نفسها من حيث أنها وحدة ثقافية أساسا .

وقد أشار جب فى مقدمة كتابه إلى « أن من يتتبع أسباب وحدة الحضارة الإسلامية يجد أن العوامل الإقليمية المختلفة لم تستطع أن تؤثر فيها ، أو تنال منها على تعاقب الأزمان ، وتباين الأصقاع مما جعل العالم الإسلامى كتلة سياسية خطيرة ؛ ذلك العالم المترامى الأطراف الذى يحيط بأوربا إحاطة محكمة تعزلها عن العالم » .

وهو كأنما يقول : إن عملية التغريب كانت من أجل تحطيم هذه الحصون الحامية له بإدخالها الآراء والثقافات الغربية لتزلزل قواعد هذه الوحدة ، وتنقل المجتمع الإسلامى إلى حالة من الاضطراب والقلق النفسى .

وقد تحقق ذلك فعلا بعد ما تمكنت أوربا من السيطرة على البلاد الإسلامية وفرض أنظمتها (التعليم – القانون – النظام السياسى) كما فرضت مفاهيمها وثقافتها .

ويصل جبّ إلى أن التغريب قد حقق نتائج ذات أهمية كبيرة جعلت الإسلام هو (العبادة وحدها) وقد انجاب الإسلام عن المجتمع وإن الثقافة الغربية (المستمدة

(١) اعتمدنا فى الترجمة على النص الذى قدمه الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه : الاتجاهات الوطنية .

من المسيحية) قد استطاعت أن تحقق الهدف فى أن يتفتت الإسلام إلى وحدات قومية تعكس التأثيرات الأوربية . لقد ركزت قوى التغريب على عوامل الوحدة الأساسية :

(اللغة/ العقيدة/ التراث/ التاريخ) .

وإن تركيا استطاعت أن تقطع كل صلة بالماضى الإسلامى وتستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية ولكنه يرى أنه ليس من الممكن أن يحدث فى الأنظمة العربية شىء مثل ما حدث فى تركيا ولن ينفصل العرب عن الماضى المجيد فى التاريخ الإسلامى والأدب الإسلامى ، بل إن استعادة هذا الماضى ، وتجديد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية فى حركة البعث الإسلامى .

(ومن هنا نفهم سر التركيز الشديد على إثارة الشبهات حول اللغة والعقيدة والتراث والتاريخ ؛ لأنهم يعلمون أن تدمير هذه الحصون سيفضى إلى انهيار تام للوحدة الإسلامية .

وقال جب فى صراحة : إن الجهود المبذولة الآن حمل العالم الإسلامى على الحضارة الغربية إنما تهدف إلى هدم وحدة الحضارة الإسلامية التى تقوم عليها وحدة المسلمين؛ لأن كل قطر سيتجه إلى اقتباس ما يلائم ظروفه من هذه الحضارة وعندئذ تتعدد أساليب الاقتباس بتعدد البيئات الإسلامية المختلفة فتفقد الحضارة الإسلامية طابعها الموحد بل لا يعود هناك شىء اسمه (حضارة إسلامية) .

التعليم والصحافة

ويصل هاملتون جب إلى العاملين اللذين يراهما الأداة الحقيقية للقضاء على الوحدة الإسلامية وهما التعليم والصحافة :

يقول : السبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى التعليم على الأسلوب الغربى وعلى المبادىء الغربية وعلى التفكير الغربى ، والأساس الأول فى كل ذلك هو أن يجرى التعليم على الأسلوب الغربى ، والمبادىء الغربية ، والتفكير الغربى : هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره ، وقد

رأينا المراحل التى مر بها التعليم بالطابع الغربى فى العالم الإسلامى ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين ، ثم يقول : والواقع أن المدارس والمعاهد العلمية لا تكفى فليست هى فى حقيقة الأمر إلا الخطوة الأولى فى الطريق لأنها لا تغنى شيئا فى قيادة الاتجاهات السياسية والادارية ، وللوصول إلى هذا التطور الأمثل الذى بدونه تظل الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية يجب ألا ينحصر الأمر فى الاعتماد على التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأى عام والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة . ويقرر جب أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى ، كما يقرر أن مديرى الصحف اليومية ينتمون معظمهم إلى التقدميين ، ولذلك كان معظم هذه الصحف واقعا تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية ، فهم لا يلعبون دوراً مهما فى تشكيل الرأى العام بالقياس إلى الأحداث المحلية فحسب ، ولكن صحفهم تحتوى كذلك على مقالات تشرح الحركات السياسية والاقتصادية فى أوربا ، وكلها مقالات مترجمة من الصحف الأوربية ، ثم هم فى الوقت نفسه يقفون الرأى العام على ما يجرى فى الغرب من أحداث وما يستحدث من آراء مبينين صدى ذلك فى بلاد الشرق .

بالنسبة للتعليم :

ويلاحظ جب أن النشاط التعليمى والثقافى (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك فى المسلمين – على غير وعى منهم – أثرا جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، وذلك خاصة اللب المثمر فى كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار ويقول : والواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلا من قوته وسلطانه .

ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهى فى كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا جزئيا ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم ، فضلا عن المصالح المدنية والحاجات الدنيوية هى أكثر ما يسترعى انتباه المسلم وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت

دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حت انحصرت فى طقوس محدودة وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا من غير وعى وانتباه ، وكان الذين أدركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد وقد يبدو الآن من المستحيل التراجع عن هذا التيار ، أو يعاد الإسلام إلى مكانته الأولى من السيطرة التامة التى لا تناقش على الحياة السياسية والاجتماعية .

هذا ما كتبه هاملتون جب إبّان انحسار تيار الوحدة الإسلامية وفى ظل سقوط الخلافة ، وتمزق الكيان الإسلامى الجامع ولكن الآن بعد مائة عام من هذا التصور اختلف الأمر تماما وانتهى هذا الجزر وبدأ المدّ الإسلامى عن طريق اليقظة الإسلامية بتصحيح موقفه بالنسبة للمعضلات الثلاث : القومية ، والتعليم، والصحافة على النحو الذى سنبينه فيما بعد .

ويستطرد جب فى الحديث عن خطة التغريب فى تمزيق الوحدة الإسلامية فيتحدث عن تركيا التى انقلبت إلى بلد غربىّ ويقرر أن نجاح التطور الذى يتطلع إليه يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء فى العالم الإسلامى وعلى الشباب منهم خاصة ، يقول جب هذا وهو يرنو إلى مدارس الإرساليات التى خرجت وتخرج أعداداً كبيرة من المثقفين الذين يؤهلهم النفوذ الأجنبى للسيطرة على مراكز القيادة والتوجيه فى البلاد الإسلامية ، ويصل فى النهاية إلى حكم خطير ظنا منه أن الإسلام غير قادر على الانبعاث من داخله وقت الخطر فيقول :

(من ثم نستطيع أن نقول ـ حسب سير الأمور : أن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينيا فى كل مظاهر حياته ، ما لم يطرأ على الأمور عوامل ليست فى الحسبان فيتغير اتجاه التيار) ، وفى الوقت الذى كان جب يكتب هذا ، أو ينشره كان تيار اليقظة الإسلامية ينبعث من جديد فى قلب الأمة الإسلامية مصححا موقفها من كل هذه التحديات والمعضلات .

ويضيق صدر جب بالمعاهد الإسلامية (الأزهر ، الزيتونة، القروين تحفيظ القرآن فى السودان وغيرها) . يقول « ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية ومع أن الثقافات القومية أخذت مكانها فى المدارس ومع أن الفوارق الاجتماعية أصبحت أكثر وضوحا ومع أن الثقافة الدينية

قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود ، ومع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لا تزال قائمة ولا يزال حفاظ القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين وربما كان تقديس شخصية محمد وما يثير ذكره من حماس فى سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم هو أهم ملامح النهضة الإسلامية الجديدة » ، وقد آن لجب أن يستريح فى قبره الآن فقد تنامى هذا التيار فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى يحمل فى أعماقه تلك الأخوة الإسلامية الأسيرة التى تفتح القلوب والعقول كعوامل جديدة من اللقاء والانصهار والتماسك .

ويشير الدكتور محمد محمد حسين فى تعليقه على كتاب (جب) فيقول : يستولى على الغربيين وهم مفزع من خطورة الكتلة الإسلامية يبدو فى قول جب .. « إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة) تدعو إلى الدهشة ثم تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها ما يدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا وجود الزعامة ولا ينقصها إلا ظهور صلاح الدين جديد »



الفصل الرابع

هدم الوحدة الإسلامية

أكبر أهداف التبشير والاستشراق

ركز التبشير على عدة أهداف كبرى كان في مقدمتها (هدفان أساسيان :)

الأول : إبعاد الإسلام عن مجال التأثير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى باعتباره دينا ونظام مجتمع فى محاولة لتصوير الإسلام على أنه دين عبادة قاصر على الصلة بين الله (تبارك وتعالى) وعباده ، مباعداً بينه وبين مفهومه الاجتماعى الأساسى فى بناء منهج حياة الأفراد والمجتمعات التى تحكمها .

ثانيا : القضاء على وحدة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الوحدة الإسلامية وذلك بخلق تيار قوى من الإقليميات وإقامتها على أساس التاريخ القديم والحيلولة دون قيام أى وحدة ظنا منه أنها ستؤدى إلى قيام الرابطة الإسلامية .

ومن هنا فقد كانت الجامعة الإسلامية أكبر أهداف التبشير ، منذ وقت بعيد فكان له عمله الخطير فى تحطيمها والقضاء على مركز تجمعها الدولة العثمانية حاملة لوائها وإسقاط الخلافة الإسلامية ، ثم إعلاء أمر الإقليميات والدعوات القومية الضعيفة ، حتى اختفى فعلا من وجه الدراسات والكتابات التاريخية والسياسية كل ما يتصل بالعالم الإسلامى بحيث أصبح لا يوجد كاتب فى العصر الحديث يعرض لهذا العالم كقوة متكاملة ، إنما تجرى الأبحاث حول الروابط الأفريقية والآسيوية والعربية .

ولقد بعدت الأبحاث عن العالم الإسلامى وكل ما يتصل بالأخوة الإسلامية أو الوحدة ، إلا فى فترات متباعدة بعقد عدد من المؤتمرات الجامعة التى تنطفىء آثارها بعد انعقادها مباشرة وتعلو عليها موجات الإقليمية والقومية حتى لا تترك أثرا فى النفوس تعيد الوحدة الإسلامية إلى مكان الصدارة .

ولقد عرض كثير من المبشرين والمستشرقين لهذا الأمر وكشفواعـن هدفهم واضحا من مقاومة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية يقول لورنس بروان : إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا خطراً على العالم أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير .

ويقول القس سيمون : إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من الشعوب الأوربية ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركة ؛ ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز اللذين هما فيها .

وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلت ضد الاستعمار الأوربى فقد استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين فى غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها ، ومن أجل ذلك قالوا : يجب أن نحول بالتبشير مجارى التفكير فى الوحدة الإسلامية حتى تسطيع الفكرة (الغربية المسيحية) أن تتغلغل فى المسلمين .

ولا شك أن هذين النصين بالإضافة إلى نصوص أخرى تكشف بوضوح عن سر الكلمات الغاضبة التى يسرع بعض الكتاب ذوى الولاء لحركتى التبشير والتغريب إطلاقها عندما يتحدث أى باحث عن (الجامعة الإسلامية) ومحاولة تصويرها بصورة تاريخية منصفة ، وكذلك حين يجرى عرض تاريخ العثمانيين مع العرب ، فيصور خصوم الإسلام هذه العلاقة على أنها نوع من الاستعمار شبيه بالاستعمار الغربى .

وقد أولى التبشير اهتمامه منذ وقت بعيد إلى الجامعة الإسلامة وتناولها بالبحث والدراسة ، وخاصة فى مؤتمر عام ١٩١١ بعد أن سقط السلطان عبد الحميد حامل لواء هذه الدعوة وسيطر الاتحاديون أصحاب الدعوة إلى الجامعة الطورانية على أزمة الحكم وانفتح الطريق للنفوذ التبشيرى والاستعمارى والصهيونى جميعا ليقتحم قلب الأمة الإسلامية .

وقد أثار القس نلسن والقس ورتر فى تقريرهما فى ذلك المؤتمر إلى أن اجتماع المسلمين بجامعة إسلامية بكل المعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ : قد أصبح أمراً وهميا لا ثمرة له غير توليد أحلام تقلق رجال السياسة ، وأشار إلى أن مكة والطرق

الصوفية هما من أكبر العوامل فى بث شعور الوحدة بين المسلمين ، ثم أشار إلى المخطط المنفذ والذى يفضى إلى استحالة تحقيق الوحدة (فى تقديرهم) فقال : عبثا يبنى هؤلاء آمالهم على الجامعة الإسلامية فإن التربية الغربية المسيحية التى تقوم بها الإرساليات التبشيرية قد انبثت فى دمائهم بفضل مدارس التبشير وباحتياطات — استمدنا حكومة هولندا — والإشارة هنا إلى أندونسيا — من شأنها أن تزعزع آمال المسلمين ، ولكنه أشار إلى هدف الجامعة الإسلامية الحقيقى حين قال :

« إن العامل الذى يجمع الشعوب ويربطها برابطة الجامعة الإسلامية هو (الحقد) الذى يضمره سكان البلاد للفاتحين الأوربيين ولكن (المحبة) التى تبثها إرساليات التبشير ستضعف هذه الرابطة وتوجد رابطة جديدة تحت ظل الفاتح الأجنبى » .

وهكذا تقلب الأمور فالحقد الذى يحمله النفوذ الأجنبى يحاولون تصويره بصورة المحبة والدفاع عن النفس إزاء اقتلاع وجود المسملين من دينهم وأرضهم يصور على أنه نوع من الحقد .

ومما يتصل بالتركيز على الإقليمية ما تحفل به الأبحاث عن تنمية الكيان اللبنانى والاهتمام بالدعوة الفينيقية فى ربوع لبنان حيث يقول (جب) بمنتهى الصراحة : إن المدارس التبشيرية والصحافة شبه التبشيرية والكنيسة ستتضافر على تحقيق ميلاد فينيقية جديدة تكون النصرانية منها أوسع انتشاراً .

ومن نافلة القول التحدث عن أكبر الخطط التى قادتها حركة التبشير بنجاح وهى القضاء على الدولة العثمانية بوصفها نقطة التجمع التى يتركز فيها جهد المسلمين فى مواجهة النفوذ الأجنبى الزاحف فقد استطاعت قوى التبشير بالاتفاق مع المحافل الماسونية لخدمة النفوذ الاستعمارى والصهيونى السيطرة على حزب الاتحاد والترقى وجماعة تركيا الفتاة فى مرحلتيها المتواليتين :

مرحلة حكم الاتحاديين من ١٩٠٩ إلى ١٩١٨.

مرحلة حكم الكماليين من ١٩١٩ إلى ١٩٣٩

ولقد استعانت الإرساليات التى قدمت إلى استانبول وبيروت ومصر فى

منتصف القرن التاسع عشر بالقوى الماسونية على تنفيذ مخططها والمعروف أن المركز الضخم للعمل إنما كان فى (سلانيك) مقر جماعة الدونمة وهم اليهود الذين أسلموا تقية ، وعملوا على تقويض الإسلام خلال ثلاثمائة سنة بالتعاون مع نفوذ الاستعمار والصهيونية ويمكن القول : أن هذا العمل أخذ مجراه الجدى على أثر المقابلة التى تمت بين هرتزل زعيم الصهيونية ، وبين السلطان عبد الحميد ، انتهت إلى قرار حاسم من السلطان هو استحالة التفريط فى شبر واحد من فلسطين ، وكانت نتيجة الخطة هى اقتطاع فلسطين لإنشاء كيان يهودى يمثل رأس جسر للاستعمار ، وتحقيق الخطة التى تقررت عام ١٩٠٧ (مؤتمر كامبل) ، وهى إيجاد حاجز بشرى بين المسلمين بفصل قارتى أفريقيا وآسيا ، ويوقف نمو الوحدة الإسلامية إلى حين .

وقد حقق الاتحاديون (وليس الأتراك) هدف الماسونية العالمية فى القضاء على الوحدة الإسلامية وتسليم فلسطين لليهود وليبيا للإيطاليين ، وإدخال الدولة العثمانية الحرب فى صف إيطاليا وألمانيا لهزيمتها .

ولقد تأكد مدى الترابط الخطير بين الإرساليات التبشير والمحافل الماسونية التى تقدمت بمخطط الصهيونية عام ١٨٩٧ وكان الانقلاب العثمانى بالنسبة لهما معا عملا بعيد المدى فى فتح الطريق أمام إرساليات التبشيرية للعمل بحرية دون موانع .

أما الموقف الثانى الذى استطاعت أن تحققه حركة التبشير فهى تلك المواهب السرية التى ألحقت بمعاهدة لوزان التى وافق عليها مصطفى كمال وحكومة أنقره وهى تصفية الإسلام فى الدولة العثمانية : إسقاط الخلافة وإلغاء الحروف العربية ، والدستور الإسلامى ، وذلك كشرط لتحرير تركيا وجلاء القوات المحتلة عنها ، وكان ذلك نصراً لا حد له لحركة التبشير استطاعت أن تستغل آثاره فى العالم العربى وفى فارس والأفغان .

وإذا كانت الدول الأوربية قد اتفقت على أن التبشير هو الذى قام بحل المسألة الشرقية ، فإن التبشير هو الذى ألقى فلسطين كثمرة ناضجة فى يد الصهيونية العالمية ، لتلتهمها ، وقد كان الاستعمار والتبشير والصهيونية جميعا يتنافسون على فلسطين منذ ذلك الوقت البعيد بحسبانها قوة ضارية فى وجه الحرية

والكرامة الإسلامية والعربية فقد كانت الصهيونية هى الجسم الغريب الذى حلم به (كاميل) وزير خارجية بريطانيا فى تصريحه الشهير .

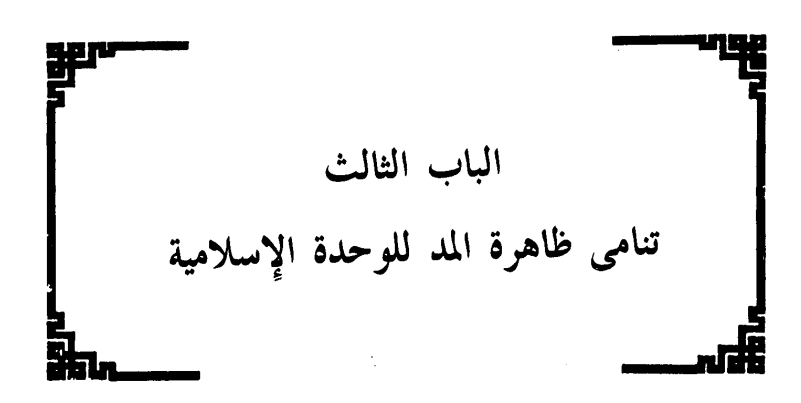
وقد جاء اليوم الذى قالت فيه البرقيات : إنه لولا المدارس الأجنبية والإرساليات لكان الحل أسوأ بين العرب وإسرائيل وإن هذه المعاهد كانت فى مستوى الهدف الذى أنشئت من أجله وإنها على كل حال قد بررت تماما كل قرش وضع فيها (جريدة النهار البيروتية ١٩٦٨/٦/٢٣ .

وإذا كان ثمة دول كثيرة قد شاركت فى تمزيق وحدة العالم الإسلامى فإن بريطانيا هى أكبر الدول عملا فى هذا المجال : مجال تثبيت النفوذ الأجنبى فى العالم الإسلامى والقضاء على وحدة المسلمين ، فقد كانت تملك فيه أضخم نصيب من الغنيمة : الهند درة التاج البريطانى ومصر والعراق والسودان ولذلك فهى تعد فى مجال الغزو الفكرى عن طريق التبشير أكبر مخطط ومنفذ ، ويبدو هذا فى مراجعة ما ذكره غلا دستون رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا وهو يمسك بيده المصحف الشريف ويقول لأعضاء مجلس العموم البريطانى :

(إنه ما دام هذا الكتاب فى أيدى المصريين فإنه لن يقر لنا قرار فى تلك البلاد) .

ومن خلال هذه الصيحة بدأت حملة الغزو التبشيرى تنفيذ مخططها الذى برز فى تعليمات (دوفرين) والذى ركز على هدم التعليم الإسلامى وإحلال العامية محل اللغة العربية لتدعيم نفوذ الاستعمار البريطانى ، وجاء بعده كرومر الذى فتن النفوذ الاستعمارى الثقافى وأشار فى تقاريره المختلفة إلى أهمية التبشير والعمل فى مجال التعليم والصحافة والثقافة .

وعن طريق كرومر عمل فى مصر المبشر (دوجلاس دنلوب) منذ ١٩٨٥ إلى ١٩١٩ تقريبا ومنذ صيحة غلا دستون وضع الإنجليز سياسة تعليمية وتبشيرية خطيرة الأثر تتركز فى إقصاء الدين عن مناهج التربية والتعليم والثقافة ، واعتبار الإسلام مجموعة من العبادات والصلوات والطرق الصوفية أما الإسلام كدين ومنهج مجتمع ونظام صالح للتطبيق فى مجال القانون والدولة فقدأقصاه . كرومر وهاجمه هجوما عنيفا وكانت مدرسته الفكرية هى التى حكمت بعد ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ولطفى السيد .



الباب الثالث

تنامى ظاهرة المد للوحدة الإسلامية

الفصل الأول

تحقق النفوذ الأجنبى مطمحه الذى خطط له بدقة فى إسقاط مؤسسات الوحدة الإسلامية (الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية) وأقام جسرا فاصلا بين أفريقيا وآسيا من عنصر آخر ليس من أهل المنطقة كما رسمت مقررات مؤتمر كامبل ١٩٠٧ ، وتنامى العمل فى تعميق مفهوم الإقليميات والقوميات ودفع التعليم والثقافة والصحافة إلى أعلى مستوى فى مقاومة الوحدة الإسلامية .

ولكن هل ماتت فى نفوس المسلمين عقيدة الوحدة الإسلامية الجامعة وهل استطاعت القوميات أن تحقق الآمال التى عقدت عليها ، أو تمكنت من أن يلقى قبولا فى الوجدان الإسلامى الذى شكله الإسلام منذ أربعة عشر قرنا على الأخوة الإسلامية .

والحقيقة أن المؤامرة لم تحقق إلا التمزق السياسى الذى فرضه النفوذ الأجنبى حين سيطر على هذه المنطقة وقسمها بين دوله وأقام فيها نظما تعمل على دعم الإقليم والقومية (بمفهوم الغرب) والكيانات الصغيرة وأسلم فلسطين للصهيونية العالمية بناء على نصوص زائفة وعمل على إحياء دعوات عنصرية والفرقة وإحياء الخلافات القديمة بين الفرق وإحياء حضارات ما قبل الإسلام : الفرعونية والفينيقية والبابلية والأشورية ولكن كل هذا لم يلبث أن تكشف زيفه فلم تجد هذه الدعوات سنداً لها من تاريخ ، أو تراث ، أو ثقافة تستطيع أن تقيم بها وجودها وتكشف أن هذه الفرق من موجات الجزيرة العربية التى انطلقت قبل الإسلام وتوسدت هذه المناطق .

وعادت الأخوة الإسلامية من جديد تنادى وتتشكل بعد أن عجزت الكيانات الصغيرة أن تقيم لها تاريخا ، أو ثقافة وسطع نور القرآن على الأمة الإسلامية ينادى بالوحدة والأخوة التى تعلو على كل الخلافات الفرعية وتبين أن مساحة الالتقاء الإسلامى أوسع كثيرا من مساحة الخلاف وأن الثوابت أكبر من المتغيرات ، وأن الأصول العامة التى يقوم على أساسها الإسلام من التوحيد والعدل الاجتماعى والرحمة والإخاء البشرى هى العناصر الأصيلة الجامعة للأمة الإسلامية

ولكن هذا المدّ الإسلامى قد تنامى على الزمن ومن خلال الأحداث وكان لليقظة الإسلامية دورها فى الكشف عن المؤامرة التى رسمتها القوى الأجنبية لدعم القوميات وإشاعة روح الخصومة للوحدة الإسلامية ومحاولة تصوير المسلمين وهم أصحاب عقلية يونانية ، أو غزبية،أو بحر متوسطية،أو فرعونية على النحو الذى ظلت تردده أقلام لامعة وأسماء بارزة خدعة للمسلمين والعرب عن حقيقة وحدتهم وجوهرها .

فقد ظهرت جماعة الكارهين للوحدة الإسلامية ممثلة فى لطفى السيد الذى دعا إلى المصرية المعترضة على العروبة الإسلامية (فكراً وجغرافيا) ، ثم توالت فى تلاميذه وعنى سعد زغلول بالدعوة إلى العلمانية وفصل الحركة الوطنية عن حركة الجهاد الإسلامى فى سبيل مقاومة الغاصب ودعا إلى الالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق ورسخ اتجاه الإقليمية المصرية الفرعونية طه حسين وسلامه موسى وهيكل (قبل حياة محمد) وكانت حفريات الآثار (من توت عنخ إلى مراكب الشمس) بمثابة دقات الطبول لحجب الإسلام والقفز من فوقه إلى تاريخ ليس له تراث فكرى وفى هذه المرحلة تعالت الدعوة إلى تاريخ ما قبل الإسلام فى كل مكان فى العالم الإسلامى من أجل إحياء الهندوكية فى الهند ، والفينيقية فى الشام والبربرية فى المغرب وقد سقطت كل هذه الدعوات وجاءت بعدها الدعوة إلى العروبة بمفهوم المارونيين اللبنانيين وساطع الحصرى وميشيل عفلق دعوة مجردة عن مضمونها الإسلامى ومفهومها الجامع المرتبط بالإسلام .

ولقد وجدت هذه المدرسة من رعاية النفوذ الغربى ما حشد لها القوى والمادة والإعلام والصحافة فى سنوات طويلة ، ولكنها لم تلبث أن سقطت ؛ لأنها قامت على غير أساس الإسلام . والذين ما يزالون ينفخون فى نارها إلى اليوم سوف لا يجدون إلا حصاد الهشيم وقبض الريح . ويُعْرفُ الكارهون للوحدة الإسلامية فى لحن القول فهم الذين يحاربون الشريعة الإسلامية والذين يكرهون الدولة العثمانية ويصفونها بأوصاف ظالمة تأييداللتيارات المعارضة للمفهم الإسلامى للعروبة وتأييدا للمفهوم العلمانى الذى فرض على البلاد العربية طويلا ثم تبين فشله وعجزه ، وما زال أولئك الكارهون للوحدة الإسلامية يحاولون وصف الحروب الصليبية بأنها صراع بين العرب وأوربا ، محاولين خداع المسلمين عن الخصومات

العنيفة الحاقدة التى حملت لواءها قوى الغرب عسكرية ونصرانية فى مواجهة زحف الإسلام لإيقاف تقدمه وضربه فى معاقله سواء فى سواحل الشام أم فى الجزائر والمغرب (حروب الفرنجة) فكانت هذه الحملات التى امتدت وانتهت بالفشل الذريع الذى سرعان ما انتج الامبراطورية الإسلامية العثمانية .

***

كانت أولى هزائم دعاة تمزيق الوحدة الإسلامية ، تلك الحقيقة التى اعترف بها جميع المنصفين من المؤرخين والمراقبين السياسيين : لقد قامت جميع دعوات التحرير فى الأمة الإسلامية على أساس العمل لتحقيق الوحدة الإسلامية التى هى الحصن الحصين لهذه الأمة والتى عمد النفوذ الأجنبى إلى القضاء عليها حتى يستطيع أن يقرب كل قطر على حدة دون أن يجد من الأقطار الأخرى القدرة عن الدفاع عن جاراتها فالوهابية (دعوة التوحيد) والسنوسية والمهدية كانت كلها تضع الوحدة الإسلامية نبراسا فلما سقطت الخلافة عملت كل الهيئات والجماعات الإصلاحية والسلفية والثقافة الإسلامية على تبنى مفهوم إعادة الوحدة الإسلامية كنص أساسى أولى لعملها وكانت ضمن قسمها وعهدها ، وكأمل عظيم لا يمكن التخلى عنه غير أن مؤامرات الاستعمار فى فرض الأحزاب السياسية الوطنية المتصارعة فى البلاد العربية حجب هذا الهدف وأبعده ، ولكن حركة اليقظة الإسلامية لم تغفل أبدا منذ حملت الأمانة بعد سقوط دعامة هذه الوحدة ممثلة فى الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية عن الغاية الكبرى وإنما عملت على إعادة الحياة إليه تحت أسماء كثيرة .

ولقد شهد للوحدة الإسلامية بوصفها دعامة أساسية فى بناء الإسلام عدد كبير من الباحثين الغربيين نجد فى مقدمتهم برنارد لويس ولوثروب ستوارد يقول برنارد لويس فى كتابه (الغرب والشرق الأوسط) بالرغم من تعصبه كيهودى «فى الغرب يعنى الدين بصورة رئيسية نظام إيمان وعبادة يتميز عن الولاء الوطنى والسياسى ويعتبر فى هذا العصر ثانويا بالنسبة لهذين الولاءين ، أما بالنسبة

للمسلمين فالدين يعنى أكثر من ذلك بكثير ، فالإسلام يشمل فى معناه ما نعنيه فى الغرب كلمة الحضارة المسيحية والدين المسيحى مجتمعين ، وجميع الشعوب الإسلامية لها قاسم مشترك واحد فى الإيمان والولاء للشريعة الإسلامية يطبعها بطابع واحد يبقى ويدوم حتى ولو فقد الإيمان وأهملت الشريعة ، وعلى الرغم من أن هذه الهوية تضعف فى هذه الأيام ، إلا أنها حتى الآن لم تمح أبدا ، والوحدة التى تجمع هذه الشعوب على قاسمها المشترك هى عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وثانيها القرآن والسنة وثالثها النظام الماهر المبنى على نظرية الإسلام الدينية وعلى الفقه الذى استند إليها فتعاليم الإسلام تضم بالإضافة إلى المعتقدات والعبادات تشريعا يمكن أن نسميه بلغة الغرب : الحقوق المدنية والحقوق الجنائية ، حتى الحقوق الدستورية فكل مسلم مؤمن يعتقد أن هذه التشريعات جاءت من النبع نفسه لها سلطة وقوة التشريعات الاعتقادية والعبادية نفسها » .

وأشار برنارد لويس إلى النظرة المتسامحة من المسلمين التى تنعكس فى المعاملة الحسنة والتسامح الكبير الذى يلقاه أتباع الديانة المسيحية فى المجتمعات الإسلامية بالرغم من موقف المسيحية كديانة منافسة للإسلام وقال : لقد أبقت الديانة الإسلامية للمسيحيين الشرقيين حقوقهم كاملة التى كفلتها لهم الشريعة الإسلامية وقد لعبوا بسبب تسامح الدولة الإسلامية دوراً صغيرا ولكنه مهم فى بناء الحضارة الإسلامية الشرقية .

ويقول برنارد لويس : ولقد فعل الإسلام باليهود مثل ما فعل بالنصارى وكان حاميا لهم فى كل مكان وخاصة فى الأندلس .

***

وهناك شهادة لوثروب ستوارد فى كتابه (حاضر العالم الإسلامى) الذى قال : لقد كانت أول علامات اليقظة الإسلامية فى العصر الحديث دعوة التوحيد التى قادها محمد بن عبد الوهاب وقد أدى ذلك إلى انتقال حركة اليقظة إلى المرحلة التالية وهى الجامعة[1] الإسلامية ، وعنده أن الجامعة الإسلامية بمعناها الشامل

(١) اعتمدنا فى هذا النص على ترجمة الرجل الفاضل الكريم عجاج نويهض (رحمه الله) .

ومفهومها العام إنما هو الشعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين فى المعمور الإسلامى ، وهى قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة أى منذ شرع الرسول مجاهدا، فالتف حوله المهاجرون والأنصار (آخذين معه بناصية الإسلام) لقتال المشركين وقد أدرك محمد صلى الله عليه وسلم خطورة الوحدة الجامعة وعلو منزلتها فى المسلمين حق الإدراك وعلم كل العالم مالها من عظم الشأن وجليل المقام فى قلوب المؤمنين يغرس غرستها بيديه فى نفوسهم فنمت وتغلغلت وامتدت جذورها وبسقت أغصانها وفروعها وينعت ثمارها . فقد ركز عليها أكثر من ثلاثة عشر قرنا فما أوهن مرور هذه القرون من الجامعة الإسلامية جانبا ولا ضعضع لها كيانا بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ الملوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازا ، حقا إن الوحدة الجامعة بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصرانى والنصرانى ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعضهم قتالا شديدا ، بيد أن الجدل ليس له من الشأن أكثر مما هو لأحقر نزاع ينشأ بين أفراد الأسرة الواحدة المشتبكة الأرحام إذ لا حقد فى الإسلام فعند الشدائد تذهب الأحقاد بين المسلمين فيصطلحون على الأمرالذى هم فيه يختلفون وينقلبون جموعا متراصة متماسكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم وفى الواقع أنه ليس من دين فى الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض ، موحد لشعورهم ، دافع بهم نحو الجامعة العربية والاستمساك بعروبتها كدين الإسلام ، لقد فتح المسلمون بلاداً عديدة ورقاعا كبيرة من الأرض انتزعوها من النصرانية والبرهمية واستأصلوا شأفة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها فلم يسمع أن قطرا أو شعبا قليلا كان أو كثيرا انتحل الإسلام دينا ثم ارتد عنه ، وقد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التى كانوا قد فتحوها ، وشيدوا فيها ملكا ودولة كالأندلس ، غير أن إجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائغ اعتباره أن جعل بعض المسلمين يرتدون عن الإسلام إن الوحدة الإسلامية إنما هى قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما هما الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة والخلافة ، ولذلك مازالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعا يجتمع فيه كل عام أكثر من (مليونى حاج)[1] وافدين من كل رقعة من رقاع العالم

---

(١) أصبحت الآن ألف ألف وألف ألف .

الإسلامى وهناك أمام الكعبة المقدسة فى مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتبادلون العواطف الدينية ، ويتباحثون الشئون الإسلامية ، ثم ينقلبون إلى أوطانهم .

يكفى أن نقول : إن الحج هو المؤتمر الإسلامى السنوى العام ، فيه تتباحث الوفود الإسلامية والنواب المسلمون القادمون من أقطار المعمور الإسلامى كافة فى مصالح الإسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الإسلام والذب عن حياض المسلمين ونشر الدعوة فى سبيل الرسالة ... الخ « هذه النصوص وكثير غيرها من كتابات الغرب تكشف بوضوح أهمية الوحدة الإسلامية وخطرها » .

ويقول محمد إقبال : « إن المسلم لا تعرف أرضه حدود ولا يعرف أفقه الثغور ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجا صغيرة فى بحره المتلاطم عصوره عجيبة ، وأخباره غريبة ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق وفى كل مكان فارس ميدان السوق ، شرابه رحيق دائما سيفه ماضٍ فى كل مفرق . المسلم الربانى ليس بشرق ولا غربى ، ليس وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند ، وإنما وطنى العالم كله ، إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة فقد طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة » .

***



الفصل الثانى

كان واضحا أن المسلمين قد بدأوا بعد سقوط الخلافة والدولة العثمانية فى البحث عن صيغة للالتقاء فى وحدة جامعة وكانت بعض الكلمات قد أصبحت لا تقال لأنها لا معنى لها ومن الحق أن يقال : إن مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية التى ظهرت من أندونيسيا إلى المغرب كانت تجعل للوحدة الإسلامية مكانا فيها على نحو من الأنحاء ، أو صورة من الصور .

وكان من أبرز ما اتجهت إليه اليقظة الإسلامية البحث عن عوامل ضعف الأمة الإسلامية وفتح باب البحث فى هذا المجال .

ومن أمثال ذلك قدوم إسماعيل عصبر نسكى زعيم مسلمى القوقاز إلى القاهرة عام ١٩٠٧ يحمل لواء الدعوة إلى البحث عن أسباب ضعف الأمة الإسلامية وفتح باب النجاح فى الأمور الاقتصادية والاجتماعية واختيار السبل القويمة التى تصل بالمسلمين إلى أخذ نصيبهم من المدنية الغربية الحاضرة .

وقال : إن مسألة الانحطاط تهمة ألقيت على عاتق الإسلام وهو منها براء ، ومما يذكر أن قصة ضعف الأمة الإسلامية وتخلفها أصبحت مسألة جديرة بالاهتمام وقد تناولها بالبحث كل من الكواكبى وشكيب أرسلان وغيرهم ، وفى هذا المجال صدر كتاب المستقبل للإسلام للسيد توفيق البكرى الذى تناول أثر التصوف فى بناء الوحدة الإسلامية ، وجرى الحديث طويلا حول دور الطرق الصوفية فى نشر الإسلام فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا والدور الخطير الذى قامت به السنوسية فى إعداد الدعاة وبثهم فى أنحاء أفريقيا .

وجاءت أحداث غارة إيطاليا على طرابلس لتؤكد تضامن المسلمين ووحدتهم بالرغم من محاولة لطفى السيد فى إثناء المصريين عن التبرع لهم ، وقد شهدت معارك طرابلس مجاهدين من تونس والجزائر والمغرب ومصر والسودان والشام والترك والأفغان على اختلاف أجناسهم وجمع أهالى مصر (١٥٠ ألف من الجنيهات الذهبية فى يوم واحد تبرعا لها) .

وكانت الحرب العالمية وهزيمة الدولة العثمانية عاملا هاما فى الحديث عن وحدة المسلمين وكان لهذه الحركة بين مسلمى الهند أكبر الأثر فقد تجمع المسلمون فى وجه بريطانيا المحتلة فى معركة عنيفة ، وألفوا حزب الخلافة ، وتدافعوا إلى مساعدة الدولة العثمانية ، ووقف العالم الإسلامى كله موقف المعارضة لحكومة أنقرة من إلغاء الخلافة والخروج من الطابع الإسلامى .

وظلت العواطف المشبوبة قائمة بين المسلمين متمثلة فى روابط الجماعات الإسلامية والمؤتمرات الإسلاميه وبعض الطرق الصوفية وتأكدت فى صورة أكبر فى موسم الحج كل عام .

وقد كان المسلمون يرون أن هذه السدود والقيود التى وضعت بين الوحدات المختلفة والأنظمة التى أقامها الاستعمار لعزل المسلمين إنما هى قيود مادية ، وسدود شكلية محصنة لن تستطيع أن تقضى على وحدة الفكر والروح الإسلاميين ، وكانوا يؤمنون بأنه سيأتى يوم قريب يتحقق للمسلمين لقاء جامع وقد أثبتت الأحداث عمق التجاوب الواضح فى مختلف أجزاء العالم الإسلامى إبَّان ثوراته ومعاركه مع الاستعمار وقد كانت لمسألة فلسطين والاحتلال الصهيونى لها أبعد الأثر فى عقد عدد من المؤتمرات الإسلامية التى تدعو إلى الوحدة فى مواجهة الخطر أبرزها مؤتمر القدس ١٩٣٢ ومؤتمرات الباكستان بعد استقلالها ١٩٤٧ وقيام المؤتمر الإسلامى فى القاهرة وفى مراكش والرابطة الإسلامية فى مكة .

ويؤكد مختلف الباحثين حتى من خصوم الإسلام إلى أن الوحدة الإسلامية هى مآل المسلمين مهما طال الزمن واختلفت الوسائل فالشيوعيون بمفهوم أحد زعمائهم (نان مالاكا) يقول : الوحدة الإسلامية هى نضال وطنى للتحرر ، لأن الإسلام هو كل شىء بالنسبة للمسلم فهو ليس فقط دينا وإنما هو كذلك دين ودولة .

ومن الناحية الأخرى يقول أحد ممثلى الفكر الغربى (روبرت بيكر) : « الإسلام فى صورته الأولية فكرة شاسعة عن مهمته فى الدنيا فلا القرآن ولا الأحاديث ولا أقوال الصحابة تفرق بن الأجناس ، أو اللغات . وعلى أساس هذا قامت نظرية وحدة سياسية وهى وحدة وإن لم تتحقق عمليا أبدا ، إلا أن

المتمسكين بالدين بقوا على مر الظروف مؤمنين بأن تحقيقها رهن بوجود ظروف أصلح ووجود حلفاء أقوى » .

ولقد توالت محاولات المسلمين للمجتمع وهى محاولات تبدأ دوما فى ظل تحدٍّ خطير ، وهى وحدة طبيعية أساسا ولكن النفوذ والقوة الاستعمارية قد حالا دون تحقيقها بخطوط دفاع كثيرة ولقد كانت دوما مرتبطة بالتحديات ، وهى تبرز دائما على إنها الأحداث الكبرى كما ظهرت بعد احتلال الصليبيين للقدس ، ومنذ بدأ النفوذ الاستعمارى الغربى الحديث .

وقد كان لقيام الكيان الإسلامى أثره فى عودة المسلمين إلى التجمع من أجل الوحدة .

ولابد كان لاستقلال الدول الإسلامية فى أفريقيا وآسيا أثره البعيد فى انتعاش فكرة الوحدة الإسلامية ، وكان لعودة تركيا إلى الأصالة الإسلامية أثر بعيد ، وكذلك ظهور دول أندونيسيا وباكستان والملايو الإسلامية .

وكان لهزيمة فكرة القومية العربية أثرها فى بروز فكرة الوحدة الإسلامية من جديد باعتبارها الأصل الأصيل الذى يمكن أن تتحرك فكرة العروبة من داخله لا أن تكون بديلة عنه .

وللإسلام مفهومه السمح للعلاقة بين العروبة والإسلام كذلك فإن الالتقاء والتقارب بين الفقه السنى والفقه الشيعى من شأنه أن يوسع دائرة الوحدة الإسلامية .

ثم كانت فى الأخير الخطوات التى تمت تحت اسم التضامن الإسلامى بقيام المؤتمر الإسلامى فى المملكة السعودية والذى عقد فى الرباط بعد حريق المسجد الأقصى وتشكلت مجموعات عمل مختلفة لا تزال تسعى سعيها فى سبيل هذا الهدف .



الباب الرابع

مواجهة المؤامرة

القوميات ، التعليم ، الصحافة

الفصل الأول

كان العمل الذى قام به النفوذ الأجنبى بضرب الوحدة الإسلامية ممثلة فى الرابطة السياسية الجامعة للعرب والترك تحت لواء الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية من أخطر الأحداث التى فتحت أعين المسلمين على أبعاد المؤامرة التى تقوم بها القوى الأجنبية مجتمعة (الغرب والروس واليهود) .

ومن ثم فقد بدأت حركة اليقظة الإسلامية تفكر فى خطوات أخرى لتصحيح طريقها إلى الوحدة الإسلامية وكان تركيزها حول أمر واحد هو العمل على قيام وحدة الثقافة الإسلامية كمقدمة للوحدة الجامعة .

وكان هذا يتطلب النظر فى النظريات المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى وخاصة ما يتعلق بالانتماء فقد كان لابد من إعادة النظر فى فكرة الإقليميات والقوميات وتقديم مفهوم إسلامى لها بعد أن تكشفت أخطارها وآثارها البعيدة المدى فى تأخير امتلاك المسلمين لإرادتهم كذلك فقد كان لابد من إعادة النظر فى أمر الفكر الوافد جملة إيماناً بالخطر الذى واجهته الأمة الإسلامية حين ظنت أنها قد تستطيع عن طريق قبول نظريات الفكر الغربى ومفاهيمه – الوصول إلى التحرر من الغرب ومحاربته بأسلحته، وكانت معركة المسلمين مع الصهيونية فى فلسطين هى أخطر هذه التجارب التى كشفت عن أن أسلوب الغرب الذى تبناه المسلمون فى الحرب والحياة والاجتماع لم يحقق لهم إلا الهزيمة والنكسة والنكبة على النحو الذى حدث منذ سقطت فلسطين ١٩٤٨ فى أيدى ليهود إلى أن سقطت القدس ١٩٦٧ وقد تبين للمسلمين بعد هذه التجارب الخطيرة أن هزيمة المسلمين وتأخرهم لم يأت إلا من مصدر واحد هو التبعية والولاء لفكر غير فكرهم،فالغرب رسم خططه على احتواء هذه الأمة والحيلولة دون أن تتمكن من الوصول إلى مكانها الصحيح، لتظل تجرى مع الزمن فى دائرة مغلقة، وخاصة بعد أن جربت الأيدلوجيتين : الليبرالية والماركسية وتكشف فشلها فى إعطاء الوجدان المسلم أشواقه ومطامحه ، ومن هنا فقد عاد المسلمون مرة أخرى إلى التماس منهجهم ؛ لأنه هو وحده

القادر على وضعهم على الطريق الصحيح ، ومن هنا كان لابد من التماس وحدة الفكر الإسلامى أساساً كمصدر للوصول إلى الوحدة الإسلامية الجامعة .

وإنه لابد للمسلمين من معرفة منهجهم الأصيل فى كل جوانب الثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية .

وقد كان على المسلمين أن يعرفوا أن هناك فوارق عميقة بين منهجهم الربانى المصدر الإنسانى الوجهة الجامع للقيم ، وبين منهج الغرب القائم على الانشطارية والاستعلاء العنصرى والمادية والوثنية .

وإن الوجهة الحقيقية للمسلمين لا تبدأ إلا من حلال العقيدة الإسلامية الجامعة عقيدة التوحيد الخالص فهى وحدها المصدر الوحيد لإطلاق طاقاتهم وتحرير إرادتهم وتحقيق وحدتهم .

***

لقد جاء الإسلام للقضاء على أمرين : الوثنية والقبلية العنصرية ، وعلى طريق الله تقوم الوحدة الإسلامية فإذا جاء النفوذ الأجنبى ليقضى على هذه الوحدة فقد اختار لها أخطر الوسائل ، وهو إحياء مفاهيم القبلية والعنصرية والتاريخ القديم السابق للإسلام وزرع ثقافات مختلفة : فردية وجماعية ووجودية وفوضوية حتى تتوزع الولاءات ، ويضطرب المجتمع الإسلامى ولا يستطيع أن يلتئم مع التوحد القادر على إعطاء الأمة الإسلامية قوتها ، من حيث أن الوحدة عامل القوة باعتبار أى عدوان على أى جزء من الأمة الإسلامية هو عدوان على الجميع وأن على الأمة أن ترابط فى الثغوروأن تكون حذرة من أى عدوان يأتيها من أى جهة من الجهات .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** ﴾[1] .

ومن هنا فإن الفكر الإسلامى الأصيل المستمد من القرآن والسنة هو وحده القادر على إعطاء هذه الأمة مفاتيح الوحدة وامتلاك الإرادة وإن تطبيق الشريعة الإسلامية هو منطلق الوحدة الحقيقى الذى يجمع المسلمين على فكر موحد جامع لا تختلف معه الأهواء .

---

(١) سورة النساء .

وهو وحده الأساس ولا بأس من الاختلاف فى الفروع وإن أى وحدة جزئية تجب أن تكون فى نطاق الوحدة الإسلامية ، وقد تكشف للمسلمين أمران :

أولا : أن دعوة القومية العربية عملت على تمزيق شمل الأمة الإسلامية وحالت دون القدرة على مواجهة الأخطار .

ثانيا : أن تجربة الليبرالية والماركسية أسقطت الأمة الإسلامية فى منحدر خطير من التمزق الفكرى .

ولذلك فقد كان على المسلمين أن يعيدوا النظر فى هذا الولاء المختلف بين أجزاء الأمة الإسلامية بين إقليمية وقومية ودعوات تحمل مضامين الفكر الغربى مادة لفكرتها .

القومية : ذلك البديل الزائف

لقد عمد النفوذ الأجنبى إلى فرض الإقليميات بديلا عن الوحدة الإسلامية ، التى كانت قد تنامى نتاجها وكانت قد قطعت مراحل طويلة فى سبيل الوحدة الإسلامية ، وسرعان ما حطم النفوذ الأجنبى هذا الاتجاه الأصيل الذى اتخذه المسلمون طريقا إلى مقاومة الصهيونية وفرض عليها أسلوب من العمل تحت اسم القومية وسط دعوات الهلال الخصيب والقوميات الجغرافية المرتبطة بالفينيقية وكان هدف هذه الدعوات تفريغ مفهوم العروبة من ارتباطه بالإسلام والنيل من محتواه وإحلال فلسفة أخرى وعقيدة أخرى محل عقيدته واستبدال رابطة زائفة برابطة أصيلة وذلك لعزل الشعوب الإسلامية بعضها عن بعض عزلا نهائيا وكان الهدف أيضا هو نسف الجسور التى تصل أجزاء الأمة الإسلامية وتخلق بين العرب وبين الترك والفرس صراعا قاسيا يحول دون وحدة الفكر الإسلامى ، فضلا عن إشاعة روح الخصومة ، وخلق التناقض بين أجزاء البلاد العربية نفسها تحت عناوين وحدة الصف ووحدة الهدف .

كانت المحاولة هى خلق (القومية المجردة) وإعطاؤها طابعا عقائديا غربيا وإحلالها محل الإسلام بمحاولة إعطائه بعدا روحيا وجدانيا رومانسيا ولا ريب أن محاولة فرض القومية القائمة على التفسير المادى للتاريخ ، والتى تحمل

من الاتجاه الاقتصادى دعامة لها من شأنها أن تخلق الصراع الطبيعى الذى تدعو إليه الماركسية وتخلق العدوانية للجيرة الإسلامية التى تربطها بالعرب عقيدة وكتابا وثقافة وتراثا ، ويصدق فى هذا قول (ولفرد كانتول سميث) حيث يقول : [إن القومية المجردة ليست هى القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ومالم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه فلن تثمر الجهود وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على ذلك] .

ولقد سارت البلاد العربية شوطا طويلا وراء القومية الوافدة ظنا منها أنها سبيل إلى النهضة والتقدم ثم تبين بعد التجربة المريرة فساد هذا المنطلق الذى لم يكن إلا كسباً للصهيونية وإسرائيل وتأخيرا لمرحلة من مراحل القوة وامتلاك الإرادة

ولقد كشف كتاب حركة اليقظة الإسلامية ومفكريها زيف هذا الاتجاه وخطره وأظهروا فساد ما قامت به القوميات الغربية وما حاكته من نظريات تبرّر نضالها الدامى وكفاحها الدائم فى سبيل السيطرة على العالم حتى فشلت المنظمات العالمية فى كبح جماحها وتحرير العالم من سيطرتها . أما الإسلام فإنه ينزع من فكره القومية : تلك الأنانية الطاغية التى من شأنها أن تخلق منافسة مريرة بين القوميات المتباينة حيث تجد كل أمة تريد أن تستأثر دون غيرها بخيرات الأرض .

فإن الإسلام يصف المسلمون بأنهم أولئك :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾[1] فطهر بذلك قلوب المسلمين من كل نزعة عدوانية ومن كل بغضاء طائفية فالمسلمون لا يعتدون ما دام غيرهم لا يبدأهم بعدوان . كذلك كشف قادة اليقظة مفهوم القومية فى الإسلام وكيف أن تعاليم الإسلام الخلقية فى الإخاء الإنسانى والمساواة بين البشر الذين خلقهم الله من نفس واحدة تأبى عليه أن يتخذ من القومية المحلية تبريرا لعدوان قوم على قوم ونفى عنه فكرة التمييز العنصرى واستغلال رقعة من الأرض لحساب رقعة أخرى : هذه التعاليم تقضى بأن الله تبارك وتعالى قد استخلف الجنس البشرى كله هذه الأرض لعمارتها واستغلالها بلا تمييز قطرى بين قوم وقوم .

وهكذا صححت حركة اليقظة الإسلامية مفهوم القومية ، وجعلتها مرحلة من مراحل الوحدة الإسلامية لا تنفصل عنها .

(١) سورة الحج .

وقد كشفت حركة اليقظة أن الإسلام هو الذى صنع العروبة وحماها ، فهى وليدته ، وإن العرب من غير الإسلام لا يساوون شيئا فى مجال التاريخ . وإن مفهوم العروبة له وضعه من حيث أن العرب هم مادة الإسلام وهم الذين حملوا دعوته إلى الآفاق وقادوا مسيرته . وهذا الوضع بالنسبة للعلاقة بين العروبة والإسلام هو دين ونظام مجتمع ، وليس دينا لاهوتيا تنفصل القومية عنه ، أو تتصارع معه على النحو الذى حدث فى الغرب حين علت دعوة القوميات . وإن محاولة التغريب فى نقل هذه المعركة إلى أفق الإسلام وهم باطل لاختلاف أساس الإسلام الجامع عن المسيحية ، (وهو نفس موقف الإسلام من العلم وموقف المسيحية منه) .

ولقد حاول دعاة القومية المُغرِّبة أن يروا فى الإسلام دينا لاهوتيا من شأنه أن ينفصل عن مفاهيم الانتماء والولاء السياسى ولقد اتخذت القوى الأجنبية من هذه المفاهيم منطلقا لها للفصل بين العرب والترك وإعلاء شأن القوميات والإقليميات فى العالم الإسلامى حتى يقع الصراع بين من تجمعهم كلمة التوحيد .

والمعروف أن الخطر هو فقدان الذاتية الإسلامية والطابع الإسلامى تحت تأثير القوميات وتأثير الفكر الغربى فإن معنى هذا أن تسقط وحدة الفكر والحضارة ، وأن تتلاشى مهمة المسلمين المنوطة بهم وهى تبليغ الإسلام للعالمين .

وقد قضى هذا التصور على محاولة هاملتون جب فى مقام وجهات نظر مختلفة تشتت المجتمع الإسلامى وتحول دون التئام وحدته .

التعليم والصحافة

وفى مجال التعليم عملت حركة اليقظة الإسلامية على الوقوف فى وجه تيار التعليم الغربى المفرغ من القيم الإسلامية والذى فرض على الوحدة الإسلامية من أجل تحويل وجهتها وتمزيق وحدتها ، ولقد أشار هاملتون جب فى دراسة للتغريب فى العالم الإسلامى إلى أهمية التعليم والصحافة فى تحطيم الوحدة الإسلامية وإن السبيل الحقيقى للحكم على مدى التغريب (التفرنج) هو أن نتبين إلى أى حد يجرى

التعليم على الأسلوب الغربى والمبادىء الغربية وعنده أن هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره .

ومن هنا كانت وجهة حركة اليقظة الإسلامية إلى تحرير التعليم من التبعية للغرب وتقديم مناهج إسلامية من شأنها أن تغرس فى النشء الإيمان بالوحدة الإسلامية وعظمة الشريعة الإسلامية وعطاء الفكر الإسلامى فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد اتسعت أعمال التعليم الإسلامى فى مختلف الأقطار الإسلامية ونشأت هيئات على نفس نسق الأزهر فى الجزائر ولبنان والهند والسعودية وغيرها تتبنى المناهج الإسلامية .

لقد ركز النفوذ الغربى فى سبيل تمزيق الوحدة الإسلامية على التعليم كعامل هام فى إدخال مفاهيم الكراهية للإسلام والإعجاب بالغرب حتى يكسر الإيمان بالوحدة الجامعة ، وقد جاء ذلك عن طريق الثقافة الغربية المبثوثة فى مختلف العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على أساس أن هذه المفاهيم لها طابع نصرانى أساسا وقد جاء فى تقارير المبشرين :

(أن التعليم فى مـدارس الإرساليات المسيحية إنما هو واسطة إلى غاية ، هذه الغاية هى قيادة الناس إلى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا أفراداً مسيحيين وشعوبا مسيحية .

« إن الأثر المفسد فى الإسلام يبدأ باكراً جدا من أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية ، إن اللغة الأجنبية وآدابها وما يتصل بها من تاريخ الأمة والثقافة والعلوم مصوغة على نحو يملأ قلب المسلم بالإعجاب بالغرب وازدراء دينه وأهله ووطنه وبالتالى فإن هذا يحطم أهم أسس الوحدة الإسلامية التى تقوم على أساس وحدة الثقافة الإسلامية خاصة إذا قدمت هذه المواد عن طريق مدرس غير مسلم وخاصة تعليم البنات » .

هذه هى مفاهيم النفوذ الأجنبى بالنسبة لدور التعليم فى تمزيق الوحدة الإسلامية ، ومن هنا وجب أن نصحح مفاهيم العلاقات بين الشعوب الإسلامية على نحو يحول دون التفرقة والخصومة ، ويحل محلها التآلف الثلاثى والترابط أو تنشأ فى الجامعات دراسات ربط بين أجزاء الأمة الإسلامية عن طريق توحيد الثقافة الإسلامية .

٭٭٭

وإذا كان النفوذ الأجنبى يرى أن معظم الصحف واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وأنها استطاعت خلال العقود الماضية أن تنمى روح الإقليمية والقومية ، وتحول دون الوحدة الإسلامية ، فإنه لابد أن تتنامى الصحافة الإسلامية وتتسع دائرتها لتعطى هذا النقص الظاهر فى الصحافة العلمانية والقومية ، خاصة وأن هذه الصحف لا تقدم لنا مفاهيم الأحداث التى تحقق الوحدة بل على العكس من ذلك تعلى شأن الإقليمية وتوقد نار الخلاف .

٭٭٭

وتأتى اللغة العربية الفصحى فى الأهمية بعد ذلك مباشرة ، فإن أكبر مخاطر النفوذ الأجنبى فى القضاء على الوحدة الإسلامية كان مركزا على دفع المسلمين إلى تبنى العاميات واللهجات وإلى الاندفاع وراء اللغات الأجنبية فى محاولة لوقف نمو الرابطة الثقافية الإسلامية الجامعة التى ترتبط بتعاليم الإسلام وفكره وتراثه .



فصل الختام

تأصيل فريضة الوحدة

أعتقد أن المسلمين اليوم فى حاجة إلى بذل قدر أكبر من التركيز على الوحدة الإسلامية بوصفها فريضة أساسية لا يستطيع المسلمون أن يعيشوا أو أن يشكلوا مجتمعهم ، أو يؤدوا رسالتهم إلا بها وقد تكشف عن المسلمين اليوم فى مطالع العقد الأول من القرن الخامس عشر كثير من الغواشى التى كانت تحجب عنهم الحقائق ، أو تعجزهم عن فهم المؤامرات التى تراد بهم ، واليوم والمسلمون قد استطاعوا أن يعرفوا طريقهم وأنه لا سبيل لهم غير التماس منهجهم الربانى وحده فهو القادر على العطاء ، وبعد أن تبينت لهم ضرورة الوحدة فإن عليهم أن يضعوا الخطة المحكمة لتحقيق الوحدة وإزالة كل العقبات التى تقف فى وجهها .

أولا : إقامة نظام الإسلام كمنهج جامع لقيام المجتمع الإسلامى والإيمان بالتكامل بين الأقطار الإسلامية فكريا واقتصاديا والارتفاع فوق الطوائف والمذاهب والعناصر والقوميات والالتقاء على القيم الأساسية الإسلامية التى لا اختلاف عليها خاصة وقد أقر الإسلام أن للفوارق بين الشعوب والأمم، التى كانت من عوامل الجغرافيا ، أو العادات ، أو التقاليد ما دامت مساحة الالتقاء الإسلامية واسعة فى مجال الثوابت والقيم الأساسية واختلاف المذاهب هو خلاف فرعي من حيث التزام المسلمين بالأصول الأساسية كالتوحيد والنبوة والوحى والقرآن .

ثانيا : الالتقاء على أن الإسلام وحده هو مصدر النهضة للأمة الإسلامية وليس الديمقراطية أو الاشتراكية ، أو القومية . وإن رابطة الإسلام ليست رابطة دينية بل هى رابطة حضارية وثقافية وقد كان أهل هذه المنطقة جميعا مشاركين فى هذه الثقافة الجامعة والقيم الأخلاقية .

وإن هناك ثقافات فارسية إسلامية وتركية إسلامية وهندية إسلامية ولكنها ليست إلا وجها من وجوه الفكر الإسلامى الجامع ملتقى الثقافة العربية وغيرها .

ثالثا : الإيمان بأن الحركات الوطنية وحركات المقاومة التى قامت فى مختلف أنحاء الأمة اسلامية كانت حركات إسلامية المصدر أساسا فالإسلام هو وحده القادر على إعطاء المسلمين المنطلق الحقيقى للخروج من الأزمات والتحديات ، وإن كانت هذه الحركات قد حوصرت من بعد ذلك ودفعت العلمانية فإنها ما تزال إسلامية أساسا .

رابعا : سماحة الإسلام وعطاؤه الوافر بالنسبة للعناصر المختلفة ، إيمانا بأن النظام الإسلامى هو أكبر ضمان لحقوق أهل الكتاب ولقد كانت الحضارة الإسلامية عطاء المنهج الإسلامنى الذى أنشأ منهج التجريب .

خامسا : الوحدة الإسلامية هى وحدة العبادة ووحدة المصير ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ .

والنفوذ الغربى هو الذى فرق هذه الوحدة وتآمر عليها لإبقاء المسلمين متفرقين ، ولقد حاولت الإقليميات والقوميات تمجيد تاريخ قديم قبل الإسلام وإعلاء شأن حفريات التاريخ بينما هذه الحفريات كلها لا تخرج عن مصدر واحد هو (الإبراهيمية الحنيفية) التى جاء الإسلام تجديدا لها وتصحيحا لانحراف طريقها من بعد .

سادسا : قرر الإسلام ثلاث روابط متداخلة هى الأرض بالوطنية والعرق بالقومية دون أن يكون لأحدهما استعلاء عنصرى وذلك كله فى تلك الرابطة الكبرى : رابطة الإسلام الذى صنع لهذه الأمة أسلوب عيشها ونظامها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى .

لقد صهر الإسلام فى بوتقته الصالح من ثقافات الأمم وعقائدها فكل رابطة وحدة كبرى بين الأمم التى تستظل بظله فكانت رابطة الإسلام هى أقوى

هذه الروابط وأوسعها نطاقا وهى الراية التى استظلت بها الأمم والنحل والأديان ووجدت منه السماحة والرحمة والإخاء الإنسانى .

سابعا : قرر الإسلام فكرة الجهاد والإعداد والمرابطة والثغور لرد العدوان واسترداد الأرض التى فقدها المسلمون ، ولقد حاولت قوى النفوذ الأجنبى إثارة الشبهات حول هذه العقيدة ، ولابد من الإفادة من تجربة الحروب الصليبية وحشد قوى المسلمين للمقاومة والفداء .

ثامنا : قرر الإسلام تكامل الدين والدولة وجعل الدولة حامية للنظام الإسلامى ، وقد كانت فكرة العلمانية مؤامرة يراد بها القضاء على وحدة المسلمين ، فالمسلمون مدعوون إلى إعادة روح الجهاد المقدس .

تاسعا : المسلمون مدعوون إلى متابعة الخطوات التى سبقت فى حركة مقاومة النفوذ الأجنبى للعودة إلى الوحدة الإسلامية إيمانا بقاعدة الإسلام الأساسية (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) .

وإن وحدة الفكر الإسلامى هى أساس الوحدة الجامعة .

عاشرا : إن مسئولية الأمة الإسلامية تتطلب تضافر جهود المسلمين على أداء الأمانة التى حملهم القرآن عليها وهى تبليغ الإسلام إلى العاملين وتقديم مجتمعهم الربانى نموذجا للناس جميعا ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا أقاموا وحدتهم ولا تتحقق وحدتهم إلا إذا قبلوا بإعادة تطبيق الشريعة الإسلامية التى هى مصدر وحدتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية .

حادى عشر : إن دعوة المسلمين إلى الوحدة الغربية ، أو الوحدة الإنسانية لا يتفق من حيث أن مفاهيم الوحدة الإسلامية تختلف فالمسلمون لا لا يستطيعون أن ينصهروا فى وحدة أخرى تميزهم الخاص الذى أعطاهم القرآن حين دعاهم إلى إبلاغ الإسلام للعالمين .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾[1] .

---

(١) سورة سبأ .

ثانى عشر : إن الدعوة إلى إحياء القوميات القديمة وإلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام هى من الأعمال التى يجب كشف زيفها وفسادها وعدم قدرتها على العطاء ، وإنها تحول بين الشباب المثقف وبين فهم وتبنى الوحدة الإسلامية .

ثالث عشر : إن المسلمين فى حاجة إلى وضع الشريعة الإسلامية موضع التنفيذ بديلا للقوانين الوضعية وذلك فى سبيل إقامة منهج الفكر الإسلامى نفسه أساسا للوحدة الشاملة .

هذا وبالله التوفيق

أنور الجندى



مراجع البحث

الغارة على العالم الإسلامى : شاتلين
تاريخ الصحافة السياسية : المنار
تاريخ الصحافة السياسية : الفتح
حاضر العالم الإسلامى : لوثوب استوارد .
الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر : محمد محمد حسين
الفكر العربى فى مصر : أنيس صابغ
الإسلام والتجديد فى مصر : تشارلس أرمسُ
بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية : أبو الأعلى المودودى
العروة الوثقى : جمال الدين ومحمد عبده
عقبات فى طريق الإسلام : دكتور محمد البهى
الحكومة الإسلامية : المودودى
تراثنا : دكتورة عائشة عبد الرحمن
فى وكر الهدامين : دكتور محمد محمد حسن
الله أو الدمار : سعد جمعة
دعوتنا فى طور جديد : حسن البنا
الغرب والشرق الأوسط : برنارد لويس
المخططات الاستعمارية : محمد محمود الصواف
نكبة الأمة العربية : محمد الخير عبد القادر
معالم الثقافة الإسلامية : عبد الكريم عثمان
رسالة المؤتمر الخامس : حسن البنا

مراجع من كتابات المؤلف

- من التبعية إلى الأصالة
- حركة اليقظة الإسلامية

● وذكرهم بأيام الله
● معالم التاريخ الإسلامى المعاصر
● السلطان عبد الحميد
● تصحيح أكبر خطأ فى تاريخ الإسلام الحديث
● الخنجر المسموم الذى طعن به المسلمون
● وحدة الفكر الإسلامى مقدمة للوحدة الإسلامية الكبرى

• المؤلف

أنور الجندى :

● عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
● عضو اتحاد الكتاب بمصر .
● عضو نقابة الصحفيين .
● عمل فى الصحافة منذ أربعين سنة وأنشأ تصوراً للصحافة الإسلامية ونشر وكتب فى أغلب المجلات الإسلامية ، وشارك فى المؤتمر العالمى للإعلام المنعقد فى جاكارتا ١٤٠٠ هـ .
● له أبحاث ودراسات حول الفكر الإسلامى أهمها :
- مقدمات العلوم والمناهج (فى عشرة مجلدات)
- معلمة الإسلام
- أعلام القرآن الرابع عشر الهجرى
● شارك فى مختلف المؤتمرات الإسلامية العالمية خلال السنوات العشر الأخيرة : مكة، الرياض ، جاكارتا ، قطر ، الإمارات ، الجزائر ، القاهرة ، الرباط .
● وألقى محاضرات فى جامعة الأزهر ، والعين . وشارك فى لجنة تصحيح دائرة المعارف الإسلامية فى المنظمة الإسلامية للتربية والتعليم والثقافة .
● من مواليد (ديروط) من أعمال أسيوط بمصر (١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م) .

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الباب الرابع

مواجهة المؤامرة

(القوميات ، التعليم ، الصحافة)

رقم الإيداع: ٩٦٠٥ / ١٩٩٣م

I . S . B . N : 977-255-078-4

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN